الهاربون



احمد عطية الله

الهاربون

تأليف

أحمد عطية الله

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى اكتوبر ١٩٤٧

مقدمة

فى أحلك ساعات الإنسان ، عندما يحس بأن الدنيا قد تنكرت له ، وأن التوفيق قد انصرف عنه ، وأن حسن الرأى قد استغلق عليه ، وأن التدبير قد استبهم وأشكل ، وأن الأمر قد تعسر وتعذر ،

فى مثل هذه العشوة الداجية ، وهذه الغمة الضالة قد يلمع بصيص من الأمل كالنجمة الحائرة فى ليلة مكفهرة عابسة ، يستهدى بها ذلك الذى فقد الرجاء ، فينكشف لبصيرته ما اشتبه عليه ، ويبين ما اختلط ويسفر ما التبس ، فيمتلىء قلبه بالإيمان ؛ وتعصف العزيمة الماضية بين أركان صدره فتدفعه إلى العمل والجهاد، فإذا بالدنيا المدبرة عنه ، قد أقبلت عليه من جديد ، فى اللحظة التى اعتقد فيها بأن القضاء قد حُم وأن الأمر قد غم . .

وصحائف التاريخ مليئة بأخبار هؤلاء الأبطال الذين قهروا اليأس وتغلبوا عليه ، وليس أروع من أن يقهر الإنسان ضعف نفسه ، إذليس أقسى من معاندة الأيام ومغالبة الأحداث والنوازل .

وفى هذا الكتاب سير بعض هؤلاء المجاهدين، من أرباب التيجان ، ورجال الحرب ، وأصحاب المذاهب ، الذين كاد الفشل أن يعصف بحياتهم حتى تداركتهم عزيمة غلابة وإرادة قوية ماضية . .

وأصحاب الرسالات ورجال الفكر والإصلاح أكثر الناس عرضة لصنوف

الأذى والاضطهاد ، لأن الصراع بين الفرد والجماعة صراع غير متكافىء ينتهى عادة بتغلب القوة على الحق ، فينتهى كثيراً مصير صاحب الرسالة بالموت ، أما إذا تداركته العناية فقد يرى من حسن الفطنة أن يهرب ويهاجر ، لأن فى استسلامه قضاء على نشر هذه الرسالة .

وسير الأنبياء حافلة بأخبار الهرب والهجرة ، فقد هرب موسى عليه السلام من جور الفراعنة ، وهرب إسمعيل إلى واد غير ذى زرع عند بيت الله المحرم ، وهاجر محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هرباً من أذى قريش وهم أهله وعشيرته ، فكانت هذه الهجرة مرحلة حاسمة فى تاريخ الإسلام ازدهر بعدها وانتشر .

وحياة الملوك ، والأمراء ، والوزراء ، والفاتحين من القواد طافحة بعجائب الأخبار وطريف السير ؛ إذ أن أصحاب السلطان يعيشون حياة ترقب وانتظار ، فالمنافسون يتحينون لهم الفرص ، حتى إذا واتتهم أذكوا نار الثورة فإذا بالعروش الوطيدة تميد تحت أصحابها ؛ بل إن حياة هؤلاء الذين كانوا بالأمس مصدر الحياة والموت تصبح فجأة مرهونة بأمر رجل دخيل اغتصب هذا السلطان ، أو أمر جمهرة ثائرة من عامة الشعب لا عقل لها إلا ما توحى به نزوة الساعة ..

وفى مثل هذه الساعات الداجية ، التى يعتقد فيها الإنسان بأن الحياة قد خبا لألأها ، ينزع بعض ذوى الإرادة القوية إلى الهرب والطرق مسدودة ، والعيون مرصودة ، والأمل لا يكاد يضىء موضع الأقدام ، وسبيل الخلاص تضل فيه العقول

والأفهام؛ فيتحقق لهم ما كان يبدو شكا، ويصبح أمراً واقعاً ما كان يحسبونه حلما بعيدا . . .

وتاريخ الانقلابات السياسية مرتبط بأخبار الهرب، فثورة التحرير الانجليزية مثلا التي قامت في وجه استبداد الملكية في عام ١٦٤٩ خلدت تاريخ حكايات عجيبة من حكايات الهرب أشهرها قصة هرب الملك شارل والأمير إدوارد ؛ والثورة الفرنسية كذلك حافلة بمغامرات الملكيين الهاربين من حكومة الشعب، وقد ورد بين صحائف هذا الكتاب قصة هرب الملك لويس نفسه، كما جاء ذكر هرب نابليون من منفاه في جزيرة إلبا .

والتاريخ الإسلامي حافل بسير الهاربين، نظراً لاختلاط الأجناس والشعوب التي كونت الإمبراطورية الإسلامية التي تدين بولائها لخليفة واحد؛ وكثرت هذه الأخبار عند سقوط الدولة الأموية وهرب أتباعها من تعقب العباسيين لهم، وقد وردت في هذا الكتاب قصة عبد الرحمن الأموي الذي هرب إلى الأندلس فأسس ملكا نافس به الخلافة البغدادية؛ وأخبار هرب الوزراء إبان العصر العباسي كثيرة؛ فكان إذا استفحل أمر الوزير ونجح أعداؤه في تنكر الخليفة له نزع إلى الهرب إلى بعض أطراف البلاد، وقد يواتيه الحظ في منفاه فيؤسس إمارة وملكا .

وقد تهرب الجحافل والجيوش كما يهرب الأفراد، ومن أروع هذه التواريخ

أخبار هرب « هانيبال » القائد القرطاجنى المنتصر من إيطاليا إلى بلاده عبر جبال الألب ، وكذلك هرب الاسكندر من الهند بعد أن أنذرته الثورة بالفناء فى تلك البلاد القصية ، وهرب نابليون من موسكو بعد خرابها .

وفى تاريخ مصر الحديثة كثير من هذه الأخبار ؛ وأروع هذه السير حكاية هرب المملوك أمين بك من مذبحة المماليك فى القلعة إبان عصر محمد على ، وهرب خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم واختفائه سنين طويلة فى ريف مصر ، وهرب زعيم المصلحين جمال الدين الأفغانى وتلميذه الإمام الشيخ محمد عبده ، أما قصة هرب الزعيم محمد فريد فقد جاء ذكر لها فى هذه الصحائف .

وإبان الحربين العالميتين الأخيرتين ، وُضعت كتب لأخبار هرب الأسرى من معسكرات الاعتقال ، وأعجبها أخبار الأسرى الذين حفروا السراديب تحت جدران السجون ونجحوا فى الهرب ؛ ومن هذه الأخبار الحديثة قصة هرب القائد الفرنسى الجنرال جيرو من ألمانيا ، وهرب موسولينى الزعيم الإيطالى من معتقله على يد طيار ألمانى .

فهذا الكتاب هدية إلى الحائرين المتعثرين الذين يظنون أن بهجة الحياة قد انصرفت عنهم وتنكرت لهم ؛ فما دام فى قلوب الناس بصيص أمل ولوكان خافتا فإن الهرب من هذه المحن النازلة هو طريق الخلاص .

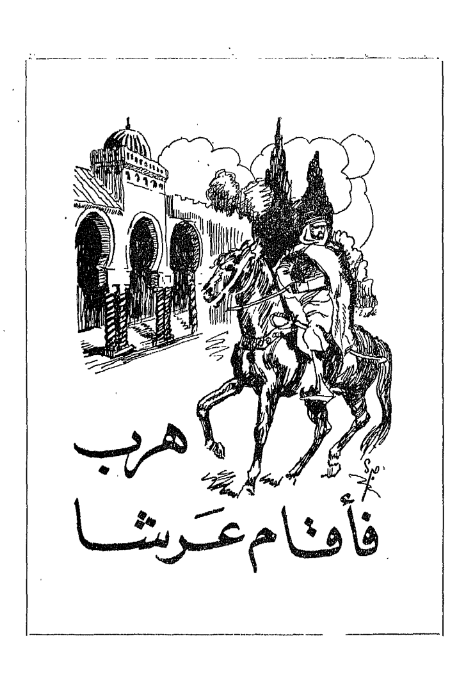
ع . ا

فهرس

الصفحة

أسير الدراويش

« انظر صفحة ٩٣ »


هرب
فأقام عرشا

في قرية نائية على شاطئ الفرات الأعلى ، وفي بيت منعزل بعيد عن جلبة الناس، وفي حجرة لا يكاد ينفذ إليها نور الضحى، جلس فتى عربي في العشرين من عمره وقد عصب عينيه بخرقة سوداء ، وراح يمسح هاتين العينين الرمدتين الفينة بعد الفينة بمنديل في يده .

ولم يكن الرمد وحـــده هو الذى ساق هذا الفتى إلى العزلة ودفعه لأن يتوارى عن ضوء النهار الباهر ، ولم يكن ذلك الفتى ممن يلزمهم المرض قعور البيوت ، ولم يكن ذلك الفتى بالخامل المغمور كبعض أهل هذه القرية المستوحشة على ضفاف الفرات الأعلى ، لم يكن الفتى أحد هؤلاء ..

كان هذا الفتى غريبا نازح الديار ، نزل هذه القرية منذ أيام ، جاءها متواريا عن عيون أعدائه الذين تعقبوا أهل بيته تقتيلا وتنكيلا ؛ فراحوا بعد ذلك يبحثون عن الشريد الطريد وعن الفتى الغض وعن الطفل الرضيع ليكون نصيبه نصيب آبائه ، حتى يأمنوا نقمته إذا استوى على عوده واكتملت رجولته .

كان ذلك في عام ٧٥٥ (١٣٧ هـ) وقد استولى العباسيون على دست الخلافة الإسلامية، بعد أن هزموا آخر خلفاء بني أمية عند «الزاب» في أعلى الفرات، حيث تجرى حوادث هذه القصة، وتعقبوه وأهله بالقتل وفتكوا بأبناء هذا البيت العريق ولم يستبقوا صبيا أو وليداً ، ولم يتورع أتباعهم عن استخدام الحيلة لاجتذاب

الهاربين من هؤلاء المنكودين إلى شراك أعدت لهم ، فأعلنوا أمانا كاذبا لمن يقدم الطاعة إلى بيت الخلافة الجديد ، حتى إذا وقع المغرورون فى الفخاخ التى نصبت لهم كان مصيرهم التقتيل والتمثيل .

كان هذا الفتى أرمد العين ، هذا الغريب الذى جاء مستخفيا فى هذه القرية القصية، الأمير عبدالرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك ، وقد خرج فيمن خرج من بقية أهل بيته إلى أطراف البلاد النائية حتى يضيع مطاردوه آثاره ويفتروا عن تعقبه ، بعد أن واتاه الحظ فنجا من الوقوع فى الشبكة التى نصبت له على يد صالح بن على .

لم يطل مقام عبد الرحمن فى قعر ذلك البيت حتى سمع صراخ ولده ، وهو طفل ابن أربع سنين ، وكان الطفل يلعب فى الطريق مع أنداده من صغار القرية وهم يجهلون عنه إلا أنه ابن هذا الغريب الذى نزل قريتهم ؛ ثم ان الطفل اندفع إلى الحجرة المظلمة حيث كان أبوه على حاله من مداواة عينيه الرمدتين ، وألقى بنفسه فى حجره وهو لا ينفك عن العويل ، حتى إذا أنس إلى أبيه راح يصف له بلسان الأطفال هرج الناس فى الطريق وهربهم إلى البيوت فزعا من الجنود الذين دهموهم على غرة ؛ وراح الأب يربت على وجه صغيره ويعبث بضفيرة شعره ويسرى عنه حتى عاد الطفل إلى ما كان عليه من مرح .

ولكن عبد الرحمن لم يطمئن له بال ولم يهدأ له خاطر ، وقد أثارت فى نفسه

حكاية الطفل الوساوس والمخاوف ، إذ علمته التجارب الحذر والتربص ؛ فأعداؤه مازالوا يجدون فى أثره لم يثنهم فشل ؛ وأن اختفاءه قد تفضحه ثرثرة عبد أحمق أو تهتهة طفل برىء ، ثم تذكر عبد الرحمن ماحدث له منذ أيام فحمد الله الذى نجاه من حيث لم يحتسب .

كان ذلك فى قرية من قرى سورية الشمالية ، وكانت رسل الخلافة العباسية تجوب المدائن تدعو بنى أمية إلى تقديم الطاعة إلى أمير المؤمنين ، الذى وعدهم أمانا ماأسرع أن ظهر أنه مكذوب . وكان عم الخليفة صالح بن على قد أوكل إليه أمر تقصى أخبار عبد الرحمن لما عرف عنه من جرأة اشتهر بها وحزم ومضاء عزيمة ؛ أرسل صالح عيونه وبث جواسيسه يطرقون الأبواب ويتنقلون بين مضارب البادية وهم ينشرون هذا الأمان الكاذب حتى يصل خبره إلى عبدالرحمن واخوته وهم فى خفيتهم .

ضرب صالح موعدا للقاء الأمويين فلما حل ذلك اليوم توافد الأمويون على معسكر صالح وقد صدقوا ماروته الرسل وأعلنه المنادون ؛ وكان الأمير عبدالرحمن قد خرج فى ذلك النهار للصيد وحدث أن عوقه عائق عن أن يعود إلى القرية التى كان أهله يستخفون بها ؛ وكان أخوه يحيى على نشاكلته حذراً وشكا فى تصديق أمان العباسيين ، لهذا رأى من الحيطة أن يرسل بعض أتباعه إلى معسكر صالح ليرى بعينه كيف جرى استقبال وفود بنى أمية ، فوصل الرسول فى

الساعة التى نصبت فيها الشباك لأولئك المنكودين ، فلم يكد يتكامل جمعهم حتى أحاطت بهم الجند وطاحت برؤوسهم فلم ينج منهم واحد ، ثم انطلق الجنود بعد هذه الوقعة الدامية إلى القرى المجاورة يفتشون عن فل بنى أمية ، فلحقوا بالأمير يحيي أخى عبد الرحمن وقضوا عليه بضربة سيف .

حدث كل هذا وعبد الرحمن فى رحلة صيده فى بعض الفلوات ، فلما كان فى طريق عودته سمع أخبار الفتك بأهله وأخيه، وعرف أن مطارديه يجدون فى أثره ويبحثون عن مكمنه ، فزاد ذلك من حذره ، فقر رأيه على الرحيل إلى بعض أطراف البلاد القصية. فلما أمسى المساء دخل داره خفية وأمر أهله بالانطلاق فى التو والساعة ، وكان فيهم ولده وهو ابن أربعة وأخوه الأصغر وهو فتى فى الثالثة عشرة ثم أختاه ؛ وهكذا خرجت هذه البقية الباقية من بيت الخلافة الأموية تحت جنح الظلام يطلبون الأمان فى قرية مجهولة منكورة على ضفاف الفرات الأعلى ، حيث رأينا الأمير عبد الرحمن فى مجلسه المظلم وقد فزع إليه وليده يطلب الحماية ...

تذكر عبد الرحمن ماجرى له بالأمس وتذكر الفتك بأخيه يحيي ، وأيقن أن القوم ما فتئوا جادين فى السعى وراءه ، وأنه أصبح غايتهم وطلبتهم ، ولا منجاة من ذلك إلا بالهرب ، فلم تعد من أبواب تفتح فى وجهه ولا من أنصار يعتز بهم ويعتمد عليهم ؛ ولم تعد بادية الشام ولا فلوات الجزيرة ملجأ أمينا ؛ إذ عيون

العباسيين له بالمرصاد وجواسيسهم.منتشرة فى كل مكان ، فلم يبق من سبيل إلا النزوح إلى أقصى أرباض الدولة التى لاتصل اليها شباك السفاح .

انتصب عبد الرحمن على قدميه وطفله مافتىء متعلقا به وقد أشله الفزع ، وسار إلى الباب ووقف على عتبته وقد بهرت عينه المريضة أشعة الشمس، فرأى ماأحال شكه يقينا إذ كانت جنود بنى العباس قد أحاطت فعلا بالقرية وراحت تفتش عن مخبأه ، إذ نقلت إليهم جواسيسهم خبر استخفائه فى هذا المكان ؛ ولم يطل به الوقوف طويلا حتى رأى أخاه الأصغر يقبل عليه وهو يصيح به يدعوه للهرب والنجاة بنفسه وهو منهوك الجسم علاه البهر من شدة الجرى ،وقد سمع بأذنيه أن الجنود ما هبطت هذه القرية إلا للبحث عنه وليس لهم من طلبة سواه .

فلما تيقن عبد الرحمن من أن الشبكة قد نصبت له من جديد أسرع إلى البيت وأوضح جلية الأمر إلى أخته وذكر لها المكان الذى يقصده وأمر عبده بدراً أن يلحق به ؛ ولم يكد يتم حديثه حتى سمع وقع سنابك الخيل وهى تقترب من البيت فلم يتمهل بل أسرع إلى الباب وأخوه الأصغر فى أعقابه فما ابتعد قليلا حتى كانت الجند قد أحاطت بالبيت فلم تجد له أثراً . أما عبد الرحمن فتوجه إلى مكان بشط الفرات وأتى رجلا يعرفه وكلفه بشراء دواب تحمله وأهله لرحلة طويلة ، ولكن سرعان ما نمى الخبر إلى بعض عيون الخليفة ، فلم يمض طويل حتى كانت الخيل تطوق القرية ، وكاد عبد الرحمن وأخوه أن يقعا فى الفخ الجديد

لولا ما كان عليه الأمير من سرعة بديهة وقوة عزيمة لاتدع مجالا عنده للتردد إذا نزل به خطب مفاجىء . . .

كان البيت الذى اختفى فيه عبدالرحمن على غير بعيد من شاطىء دجلة، لاتفصله عنه إلا غوطة تكسوها الحشائش البرية ، فاندفع الأمير نحوها وسار متلصصا لايتبعه إلا أخوه وكان وقع أقدام الخيل تقترب نحوهما وصياح المطاردين يرن فى آذانهما ، حتى إذا قاربا الماء تبين الجنود أن الصيد قد أفلت من عشه فاستداروا نحو الفرات ، فلم يجد عبد الرحمن وسيلة للنجاة إلا أن يلقى بنفسه فى الماء ، فلما رأى الصبي ذلك لم يتمالك نفسه من أن يقتفى أثر أخيه فوثب من فوره إلى النهر .

كان عبد الرحمن سباحا ماهراً كما كان فارسا لا يشق له غبار ، فامتطى ظهر الماء كما يمتطى الفارس صهوة جواده وراحت ذراعاه تشقان له طريقا فيه . وما أن ابتعدا عن الشط حتى كان المطاردون فوق رأسيهما ولكن أحداً منهم لم يجرؤ على اقتحام هذا العباب الصاخب؛ فنزعوا إلى الحيلة وصاحوا بالطريدين يعرضون عليهما الأمان ، ولكن عبدالرحمن لم يكن بالغر الأبله الذى يستمع إلى مثل هذا الدعاء المكذوب ، فصاح بأخيه يستحثه ويشجعه ، والفتى يجاهد التيار جهاداً حتى كادت تكل ذراعاه ، فأصبح نهبا موزع القلب بين الرغبة فى الفرار واللحاق بأخيه وبين الخوف من الغرق ، حتى تغلبت نزعة البقاء على الحياة ، ففتر ذلك من عزمه وأخذت تستهويه كلمات الأمان المكذوب فسرعان ما استجاب لها فانكفأ يطلب الشاطىء . .

أما عبد الرحمن فتولاه الأسى عندما رأى أخاه يرتمى فى أحضان مطارديه ، ولـكنه لم يترك الحزن يفت فى عضده بل لعل ذلك حفزه على مضاعفة المجهود فراح يضرب الماء بذراعيه القويتين كالذى أعماه الغضب وأصمه الخوف وهو مع ذلك لم يفتأ يحذر أخاه تارة ويستحثه على طلب الفرار أخرى ولـكن الموج حال بينهما كما حال الموج بين نوح وابنه فلم يستمع الفتى لصوت العقل فكان من الهالـكين .

ولعل المطاردين اكتفوا بأحد الأخوين ، لأن بعضهم كان قد استعد للوثوب إلى النهر فمنعه أصحابه عن اللحاق بعبد الرحمن اكتفاء بأخيه الأصغر . أما الأمير فراح يسبح كالحوت المجروح لايلوى على شيء حتى وصل إلى الضفة الأخرى من الفرات ؛ وما أن نظر خلفه حتى رأى أخاه الصبى وقد أحاطت به الفرسان ، ولم يستمهلوه طويلا حتى طاحوا بعنقه ، وحمل قائدهم رأسه على سن رمحه وراح يلوح به فى الفضاء تلويح المنتصر الظافر .

لقد كان هذا الغدر السافر والفتك بفتى لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره مما قوى عزيمة عبد الرحمن على مواصلة الفرار فلم يدع لنفسه مجالا للتردد أو تقليب الرأى من جديد بل تسلطت عليه فكرة واحدة هى الهرب إلى حيث لاتمتد إليه يد سناطة الخلفاء العباسية .

قضى عبد الرحمن نهاره مندسا بين الأعشاب البرية مفتوح العين كالثعلب

حذراً من المفاجأة ، حتى وثق من أن مطارديه يئسوا من اقتفاء أثره . فلما جن الليل راح يتحسس طريقه وقد عاث جسمه قشعريرة من فعل الماء الذى بل ملابسه ونفذ إلى جلده ، ولكن رغبته فى الفرار ملأت صدره حرارة فلم يشعر بالتعب ولم يحس بالجوع ، ولم يعد يشغل باله شاغل سوى الخلاص بنفسه .

مشى عبد الرحمن إلى بادية الشام سيرا على الأقدام متزييا بزى الأعراب وقد تجنب المروق فى وسط القرى الآهلة حتى لا يكون غرضا لعيون أنصار العباسيين الذين كانوا يتربصون به الفرص فى كل مكان ، وكان لا يجهر بالبذخ والثراء حتى لا يستثير حوله الأقاويل ؛ حتى انتهى به المسير إلى محلة تنزل بها جماعة من الموالين لبنى أمية فأكرموا وفادته وقدموا له فرسا تحمله إلى فلسطين ، وهناك وجد خادمه بدرا فى انتظاره وفى رفقته مولى من موالى أخته أم الأصبع ، وكانت قد أرسلته خفية الى هذا المكان يحمل صرة بها حلى وجواهر ومبلغ كبير من الذهب ، ليصلح عبد الرحمن من حاله ، وليجد ما يكفى لنفقته حتى يصل الى مكان أمين لا تمتد اليه ذراع الخليفة .

ولكن عبد الرحمن لم يكن ليرضى أن يعيش حياته طريدا تتقاذف به البلاد ولا يرضى لنفسه أن يعيش عالة فى أكناف القبائل وهدفا للوشاية ، لهذا أجمع رأيه على أن يقيم لنفسه ملكا ويحيط نفسه بعصبة من الأنصار تتكسر حولها نبال أعدائه ، أما الى أين ينتهى به التطواف فقد ترك ذلك للفرصة المواتية .

استتب الأمر للخليفة المنصور وامتدت أطراف الدولة الجديدة الى فارس وخراسان ومصر ، وراح المنصور يبنى عاصمة جديدة للخلافة جمع لها مهرة المهندسين والصناع ، فكانت بغداد فخر المدائن العربية ، وكان ذلك إيذانا بعهد سلام ينشر ستوره فوق رقعة الإمبراطورية الإسلامية بعد سنى حرب أهلية أشاعت الفزع والقلق فى النفوس .

ولكن سلطان الخليفة ما كان ليمتد وراء صحراء مصر الغربية ؛ فكانت تونس والجزائر ومراكش والأندلس لاتدين لبغداد إلا بالاسم ، بل كان بعض أمرائها لاتربطهم ببغداد إلا وشائج الدم واللغة والدين وهى قوية تستدر لبان الأخوة ، أما إذا عصفت بها عواصف السياسة فتشعل نار الأحقاد والأحن والحسد ، حتى يصبح أبناء العمومة الواحدة أشد عداء وأكثر امعانا فى النكاية .

كان على مراكش أمير عربى من أولئك المغامرين الذين أنشأوا ملكهم بحد السيف ، وكان كعبد الرحمن جارت عليه الأحداث فهرب من أسبانيا العربية (الأندلس) الى شمال أفريقية وهناك أقام لنفسه ملكا جديدا ؛ وكان كعبدالرحمن قرشيا بل كان يحمل مثل اسمه ، كان هذا عبد الرحمن الفهرى ..

وكان الفهرى طموحا علمته التجارب اساءة الظن بمن يلوذ بهم أو يلوذون به ، وكان البربر شعبا لم يألف بعد الطاعة ، يلوحون بانتقاص إيمانهم إذا بدا لهم خنوع أو ضعف من أميرهم ، ولم يدع لهم الفهرى فرصة للثورة أو التبرم ، بل كانت عيونه

تجوس خلال البادية تنقل اليه ماترى وتسمع .

وفى ذات يوم جاءت الرسل تنبىء الفهرى بأن « أمويا » هبط المغرب ، وقد دلت الدلائل على أنه من أشراف القوم وإن كان قد امتنع عن الإفصاح عن حقيقته إلا للأمير . كان هذا الأموى عبد الرحمن ، انتهى به المطاف الى ساحل المحيط الاطانطى، إذ لم يجد فى فلسطين ومصر وبرقة وتونس والجزائر ذلك الأمان الذى ينشده، فلم يزل مجدا فى تغربه حتى وصل الى مراكش ، دخلها هكذا شريدا نازحا لايتبعه إلا خادماه ولا يحمل معه إلا فضلة من مال يقضى بها حاجات الحياة الملحة .

لعل الفهرى قد ركبه الزهو لالتجاء سليل بيت الخلافة اليه ، فاتخذ من عبد الرحمن داعية لملكه ووسيلة للتأثير على القبائل العربية النازلة فى تلك البلاد ، ولم يكن اكرامه له قياما بواجب مفروض بل اعتزازا بجاهه ، ولكن سرعان ماتغلبت طبيعة الحذر فى نفس الفهرى فوجد فى عبد الرحمن ماجعله يخافه ويخشى جانبه ، إذ أن الأمير الأموى مع ما كان يحيط باسمه من وهج السلطان ، فان دماسة خلقه وسرعة حاضرته واتساع أفقه قد جعله محط أنظار رؤوس القبائل .

وأولج الفهرى فى ريبته بعبدالرحمن ، ومما وكد لديه تخوفه نبوءة رواها يهودى ممن يمتهنون الكهانة ؛ نعم كان ذلك من زمن طويل ، ولكن الأوهام حين تخيم

فوق الرؤوس لاتحتاج إلا للتافه من الأمور لتخرج منها أخطر النتائج ، وهكذا فعل الفهرى حين استعاد الى ذهنه ماتنبأ به ذلك اليهودى ، من أن قرشيا سوف يملك الأندلس ويصير ملكها فى عقبه ؛ ومن علامات هذا القرشى أنه ذو ضفيرتين وأن اسمه عبد الرحمن. وكان عبدالرحمن الفهرى يمنى نفسه بتحقيق النبوءة، فأرسل ضفيرتيه حتى تنطبق عليه تلك الأوصاف ، ولكنه لما رأى ضيفه «عبد الرحمن» بضفيريته وعلاماته الأخرى استولى عليه الفزع وانقلب كرمه نقمة حتى عزم على الإيقاع به .

أحس عبدالرحمن بأن ابتسامة الغدر بدأت تعلو وجه مضيفه ، وأخذ خادماه ينقلان إليه مايسمعان من أحاديث الناس ، حتى إذا لم يعد فى المداهنة سبيل انطلق عبد الرحمن هائما على وجهه وراح يوغل فى الصحراء بعيداً عن الحواضر التى تصل اليها يد الفهرى ، حتى انتهى إلى مضارب قبيلة زنانة ، وهم من اخواله أجاروه وأخفوه من عين الفهرى ، الذى أجمع رأيه على أن يتخلص من عبد الرحمن بالقتل .

وهكذا عاد الأمير الأموى مرة أخرى لحياة التشرد والتخفى ، فعاش فى صميم البادية حياة شظف لم يألفها من قبل ، ولكن صلابة عوده وبعد همته وطموحه الذى لا تزلزله النوازل لم يدفعه للاستكانة ولم يدع اليأس يسيطر على قلبه ، وهو بطبيعته متفاءل يترقب انبلاج الفجر والليل متجهم تتوه فيه الآمال .

. رأى عبد الرحمن أن لاسبيل إلى منازلة هذا الخصم الذى لايقل عنه جرأة ولا يقظة ، لأنه صنع ملكه بذراعيه فهو أحرص من أن يفلت منه زمام أمره ، لهذا تحول عبد الرحمن إلى الأندلس ، ذلك الجزء الجنوبى من أسبانيا حيث وطد العرب سلطانهم وأقاموا لهم فيه دويلات وإمارات ، وكان أعظم هؤلاء الأمراء طولا «يوسف الفهرى» صاحب قرطبة وهو ابن عم لعبد الرحمن أمير البربر ، ولكنه مع ذلك لم يستتب له الأمر كله بل كانت الأحقاد والخصومات تتنازع القبائل العربية من قريش ومضر ويمن وبربر ، فرأى عبدالرحمن أن يستفيد من هذا النزاع .

لم يكن لهذا الأمير الشريد مال يشترى به الأنصار ، ولم يكن له من عصبة يحتمى بها ولا من خلصاء يفضى اليهم بسره اللهم إلا رجل واحد هو خادمه بدر . . . ولم يكن ذلك ليقعد عبد الرحمن عن المضى فى تحقيق أحلامه البعيدة ، فأرسل بدراً بمفرده الى الأندلس . وقد حمله سيده كتابا الى اثنين من أشياع بنى أمية وكانا أصلا من موالى عثمان بن عفان ، وصف لهما فيه حقيقة حاله وملاحقة الفهرى له ، وذكرهما بما فعله جده هشام حين كان صاحب الأمر بالأندلس وأنه أحق بوراثته ، وأن اعلاء سلطان بنى أمية هو إعلاء لسلطانهم ، وأن توفيقه فيما هو مقدم عليه يفتح لهما الطريق الى مناصب الدولة الجديدة .

عبر بدر البحر ونزل إلى ساحل «البيرة» ، وهناك اجتمع بالرجلين وكانا صاحبا وفاء لبنى أمية ، فتدارسا الأمر ووجداه جديراً بالمحاولة وإن كان تحقيقه صعب المنال بعيد الإمكان ، ثم تبادلا السر مع أشياعهم فوجدا من بعضهم سميعا لهذه الدعوة . كما وجدا معارضة ممن هيأت لهم امارة يوسف الفهرى حظوة عنده ، ولكنهما لم يجزعا ولم يقنطا ، فاكتريا مركبا وأرسلا بدراً فى صحبة احد عشر رجلا من أتباعهم بدعوة عبد الرحمن إلى الأندلس ، فلما حطت المركب عند ميناء « سبتة » على مضيق جبـل طارق وجدا عبد الرحمن فى انتظارهم ، فتهلل وجهه فرحا وفاضت نفسه أملا ، وهو لايدرى أن دعوته لم يستجب لهـا إلا حفنة من الرجال أعجز من أن تقوم على أكتافهم دولة لا يستقيم لهـا حال إلا بتجريد الجيوش وجمع آلاف الأنصار وبذل المال ، ولكن حب المغامرة وثقة عبد الرحمن بنفسه لم تدعه يتخاذل فيضيع الفرصة مع تفاهتها .

سافر عبد الرحمن إلى الأندلس ونزل على ساحلها الغربى وهناك قابله أشياعه بالترحيب ، وسرعان ماسرى خبر قدوم الأمير الأموى وريث عرش الخلافة الإسلامية ، فأثار فى نفوس أولئك المهاجرين حنيناً إلى المـاضى الحبيب إلى نفوسهم ، وأهاج روح الولاء إلى بيت الخلافة ، فهرعوا إلى عبدالرحمن واحتفوا بمقدمه ؛ فوجدوه كما اشتهوا عظيما فى خلقه وخلقه ، كيسا أريبا بأساليب الخطاب ، محنكا صقلته التجارب ، عيوفا لاتغريه الصغائر ، يابس المـكسر لاتحطم

همته المصاعب ، فلما كثر الأشياع والأنصار انتقل عبد الرحمن إلى حصن عند بلدة « طرش ».

* * *

بلغت أخبار عبد الرحمن قرطبة ، وسمع يوسف الفهرى ماجعله يفزع على ملكه من هذا الشريد الطريد فنصحه خلصاؤه أن يأخذ الأمر بالحيلة والمداهنة ، فأرسل إلى عبد الرحمن مرحباً بقدومه وأنفذ إليه الهدايا النفيسة وعرض عليه المصاهرة على شريطة ألا يطالب بأمارة أو سلطان . وكادت هذه الحيلة تعصف بآمال عبد الرحمن وتذرى بها ، إذ فرح أنصاره بهذا العرض السخى وعدّوه نجاحا وتوفيقا ، ولكن الأمير الشاب لم يكن يسعى إلى الثراء وجمع المال بل كان همه هم آبائه وأجداده ، أن يقيم ملكا ويخلد مجداً .

قارع عبد الرحمن الحيلة بالحيلة فعمل ماأثار حفيظة أتباع يوسف ، فردوا وفد الفهرى بل أنهم احتجزوا رئيسه ، وكان ذلك بمثابة اعلان الحرب على أمير قرطبة ؛ واستعد الفريقان للقتال ، فلم يكد تهدأ حدة شتاء ذلك العام وكان قاسيا زمهريرا حتى كان جيش عبد الرحمن ينهب طريقه نهبا صوب الشمال إلى قرطبة .

سار الجيشان بحذاء شاطئ نهر الوادى الكبير ، هذا على جانبه الأيسر ويوسف على شاطئه الأيمن فلما تقابلا الندان كان ماء النهر فاصلا بينهما ، عند ذلك رأى عبد الرحمن أن يسرع إلى قرطبة نفسها ليلاقى خصمه على أبوابها

فلما أحس يوسف بذلك انكفأ من حيث أتى ، وانطلق الجيشان يتسابقان وكان سباقا عجيبا .

وهناك على رمال الصحراء الى غربى قرطبة التقى الجيشان فانهزم يوسف وتفرق أشياعه ، وسار عبد الرحمن الى قرطبة ودخلها وانتهى الى قصرها .

وهكذا أصبح الطريد الشريد صاحب ملك ومؤسس دولة زهت على الخلافة العباسية نفسها .


... في زيّ النساءِ

انتهى الأمر ونصب جورج أمير هانوفر ملكا على انجلترا ، ولم يكد نصراء أسرة «استيوارت» المعزولة من أشراف اسكوتلندا ونورثمبرلند يزحفون جنوبا حتى التقوا بجيوش الملك الجديد عند « برستون » وهزموا شر هزيمة ، وكان نصيب هؤلاء الأشراف وأكثرهم من الكاثوليك ، أن وقعوا أسرى فى يد الملكيين ، وسيقوا إلى لندن تمهيداً لتقديمهم إلى المحاكمة .

اكتظ برج لندن بهؤلاء المسجونين السياسيين ، وتاريخ هذه القلعة الحصينة حافل باخبار الثائرين الذى كان نصيبهم فى الغالب فأس الجلاد ، هذه الفأس التى طاحت من قبل وفى ساحة البرج الوسطى بكثير من الأمراء والأميرات والنبلاء ورجال السياسة .

ولم تكن محاكمة هؤلاء النبلاء مما يشرف القضاء الإنجليزى ، لأنها محاكمة سياسية أوحت بها العواطف لا الحرص على مبادىء العدالة العامة . ومما زاد الموقف ضغثا على إبالة ، أن أدخل فى روع هؤلاء المتهمين أن الخير فى الاعتراف بجريمتهم ثم عليهم أن يطلبوا بعد ذلك العفو من الملك ، وهم الذين ثاروا فى وجهه بالأمس ؛ وهكذا خرجت المحاكمة من يد القضاء العام إلى ساحة العرش . أما الملك وصاحب التاج فمؤسس أسرة جديدة يريد لها الاستقرار والدوام فكان من الطبيعى أن ينزع إلى الشدة حتى تكون خاتمة هؤلاء الثائرين عبرة لغيرهم .

ولكن الرأى العام الإنجليزى كان مناهضا لسياسة الانتقام داعيا إلى التسامح مع المتهمين ، حتى بلغ من قوته أن اضطر رئيس الحكومة « ولبول » إلى التراجع فلم يصر على إرسال جميع هؤلاء النبلاء إلى مقصلة الجلاد ، ولم يصدر أمر الملك إلا بإعدام ثلاثة من هؤلاء الثوار ؛ هم « درونت وتر » وهو من أقرباء الأسرة المالكة ، واللوردان « نيثديل » و « كنمور » وهما من زعماء اسكتلندا .

وفى يوم ٢٥ فبراير ١٧١٦ أعدم «درونت وتر» «وكنمور» ، ولما جاء دور « نيثديل » اكتشف الحراس أنه اختفى من سجنه الحصين ما بين العشية والصباح ؛ أما كيف هرب اللورد نيثديل من برج لندن فموضوع هذه القصة .

* * *

كانت الكونتس زوجة نيثديل عند القبض على زوجها فى السادسة والعشرين من العمر ، وكانت سيدة تفيض شبابا وجرأة ، ذات جسم مهصور وشعر يميل إلى الحمرة وعينين زرقاوين ؛ وكانت فى مقدمة النبيلات المناصرات للدعوة ضد أسرة هانوفر الجديدة .

جاءتها الأنباء بهزيمة زوجها ورفاقه عند « برستون » وهى فى بيتها الريفى فى «نيثديل» من مقاطعات اسكتلندا الوسطى ، فأصبحت واثقة جد الوثوق

من أن زوجها لن ينتظر عفوا أو رحمة وأن خاتمته قد اقتربت لا محالة . ولكنها مع ذلك لم تفقد الأمل ، فلم تضيع ساعة من الوقت بل سارعت فى توها إلى لندن ، لا يصحبها فى رحلتها أحد إلا خادمتها « إيفانز ».

كان اليوم من أيام شهر يناير القارصة البرد ، وقد غمرت الثلوج السهول واكتسحت الطرقات ، ولكن ذلك لم يفل من عزيمتها ، فأمرت الحوذى بإعداد عربة أقلتها مع خادمتها الأمينة (التى نشأت فى بيتها منذ الصغر فوثقت بها ومنحتها سرها) فانطلقت العربة حتى وصلت إلى « نيوكاسل » ، وهناك انتقلت السيدة وخادمتها إلى عربة البريد التى تسير إلى مدينة «يورك» ، ولكنها لم تبتعد طويلا حتى عثرت الخيل ، وانتشرت الشائعات بين المسافرين بأن الطرق قد ردمتها الثلوج ، وأصبح السفر عليها ضربا من الجنون ، ولكن ذلك لم يثن من عزم السيدة التى نفحت السائس مبلغا كبيراً من المال لاكتراء خيل جديدة ، وهكذا تابعت السيدة رحلتها إلى لندن فى جو ثلجى عاصف .

وما أن وصلت «الليدى نيثديل» إلى لندن حتى هرعت إلى بيوت بعض أشراف اسكتلندا لتستوثق من حقيقة الرواية ، ولكنها لم تسمع إلا ما أضعف أملها ، وتيقنت من أن كل محاولة لالتماس العفو عن زوجها مقضى عليها بالفشل ، وإذا كانت هنالك وسيلة لتخليص قرينها فليست إلا ان تحطم القضبان والأقفال الحديدية التى سجن خلفها !

كان أول ما سعت إليه أن يسمح لها بدخول البرج العتيد ، ولكن « ولبول » رئيس الوزارة الإنجليزية إذ ذاك رفض ملتمسها إلا إذا قبلت أن تشارك زوجها فى محبسه حتى النهاية . بيد أنها رفضت هذا العرض لأنها يجب أن تكون حرة طليقة إذا حاولت ان تفعل شيئا فى سبيل خلاص زوجها ، ولم يمض غير قليل حتى نجحت حيلتها فوجدت نفسها فى غرفة زوجها بعد أن رشت الحراس !

تكشفت حقيقة الموقف أمام عينى ليدى نيثديل ، فالأمل فى الهرب من هذا الحصن ضئيل ، فهناك فى غرفة زوجها نافذة واحدة مشبكة بالحديد تطل من هذا الارتفاع الشاهق على خندق البرج ، وهو بدوره فى حراسة بعض الجنود ، فإذا قدر للورد نثديل الهرب فلن يكون ذلك إلا من باب الغرفة نفسه ، وهو تحت حراسة قاسية ، بل أن الدرجات الموصلة إلى الغرفة ما كانت فى منأى من أعين الرقباء ؛ لهذا كان من السخف أن يلجأ أحد إلى استخدام القوة ، فالحيلة والبراعة هى السلاح الذى قد ينجح فى مثل هذه الظروف .

إن أضعف ما فى نظام السجون العامل الإنسانى ! وكان هذا أشد وضوحا فى سجن حصين كبرج لندن حيث كان احتمال الهرب أمراً مشكوكا فيه ؛ لذلك اعتمد حاكم البرج على مناعته وشدة مقاومته فنزع إلى الإهمال ، ولم يزع تطبيق

القانون فى دقة وعناية ، فكانت زوجات الضباط والحراس وأطفالهم تغدو وتروح فى حدائق البرج وطرقاته كما يحلو لهم ، وهذا ما أعطى الفرصة إلى ليدى نثديل . .

كانت خطة الهرب تتلخص فى أن يتخفى زوجها فى زى إمرأة ذات قبعة عريضة وضفائر مستعارة ، وهكذا يجد طريقه مفتوحا إلى الحرية تحت أعين الحراس وبصرهم ؛ ولكن كيف يتحقق ذلك ؟ عكفت السيدة على دراسة مفردات هذه الخطة فوجدت أن عليها أن تستعين بغيرها من النساء ، فوقع اختيارها على فتاة تدعى « هلتون » وعلى سيدة تدعى « ملز » لها من قامتها المديدة وجسمها الممتلىء مايجعل التماثل بينها وبين اللورد قريبا إذا استعان فى ذلك بمعطف فضفاض وذوائب من الشعر الأحمر ، فضلا عن تلوين حواجب اللورد الغزيرة وتحمير خديه !

ولكن الخطة لم تعجب اللورد « نيثديل » فرفض أن يقوم بدوره ، إذ هى فى نظره خطة صبيانية سخيفة لا تليق به ، إذ كيف من الجائز أن يقلد جندى قاسى الملامح عسكرى الخطوات إمرأة ما من النساء فى زيه ومشيته فخير له أن يعمل على شق طريقه بالسيف لا بتلوين الخدود وتحمير الوجنات مما يجعل اسمه اضحوكة الأضاحيك بين المتحدثين والرواة . وخير لزوجته أن تسعى إلى الملك لتلتمس العفو عنه علها تنجح فيما فشلت فيه من قبل .



هكذا هرب اللورد نيشديل من برج لندن فى زى امرأة ..

وأبدت ليدى نيثديل موافقة ، ولـكنها كانت واثقة تمام الوثوق من أن الاعتماد على عفو الملك كالاعتماد على ساق من القش ، بعد أن أصدر الملك أمراً بألا يرفع إليـه التماس ما من اللورد نيثديل بالذات ، فباءت لذلك كل محاولة للوساطة مع سيدات القصر بالفشل .

أجمعت السيدة رأيها على أن ترى الملك وجهاً لوجه ، لهـذا ارتدت الملابس السوداء وذهبت إلى القصر وفى صحبتها الآنسة هلتون التى سبق لها أن رأت الملك . وصلت الشريفة الاسكتلندية إلى القصر حتى انتهت إلى الحجرة التى تفصل قاعة الاستقبال الـكبرى عن غرفة الملك الخاصة ، ولما ظهر الملك أسرعت « ليدى نيثديل » وألقت بنفسها على أقدامه مولولة : « إننى الـكونتيس نيثديل السيئة الحظ ! » فما كان من الملك عند ما عرف حقيقتها إلا أن تراجع إلى الوراء مبهوتا ورفض أن ينظر إلى الالتماس الذى رفعته إليه ؛ ولـكنها مع ذلك لم تقطع الأمل بل أمسكت بتلابيب معطفه وراحت تبثه شكواها باللغة الفرنسية لغة البلاط الانجليزى إذ ذاك ، فأثار ذلك غضب الملك وهياجه ، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص منها إذ أنها ارتضت لنفسها أن يجرها جرا على الأرض حتى وصل إلى قاعة الاستقبال وهى ممسكة بتلابيبه وهناك عملت الحاشية على تحرير الملك الثائر من قبضتها . وهكذا فشلت فى مهمتها .

رأى لورد « نثديل » أن يتجه إلى مجلس اللوردات لعله يجـد فيه من

يشد أزره ، فقامت زوجه بهذا الدوز وراحت تعرض قضيته على اللوردات واحداً واحداً ، ولكنها فشلت للمرة الثانية ؛ نعم إن لورد « يمبروك» وهو من اقرباء نيثديل تكلم فى صالحه ، ولكن اليأس تسلط عليه منذ أن فتح فمه للدفاع عنه ، وهكذا سد فى وجه نيثديل آخر طريق للنجاة ...

ولما لم تبق من وسيلة لتخليص زوجها ، لم تجد ليدى نيثديل إلا أن تزداد إيمانا بالخطة التى وضعتها للهرب فعملت على تنفيذها فوراً . إنطلقت إلى البرج وهناك أشاعت بين الجنود والحراس أن الملتمس الذى قدمته إلى مجلس اللوردات قد قبل وأن جلالة الملك أبدى ارتياحا للنظر فيه . فهنأها الحراس لنجاح مسعاها ، (فقد أصبحت من كثرة ترددها على البرج شخصية معروفة محبوبة بين الحراس . وزاد فى ذلك ما كانت تقدمه لهم من هدايا ومن مال) ولكنها لم تخف الحقيقة عن زوجها ؛ إن ساعة العمل قد أزفت فلم يبق للورد من مهلة إلا يومان ، ففى الغد وهو يوم الجمعة سيصدر الملك حكمه النهائى ، فإذا رفض الالتماس وهو أمر مؤكد فان المتهم سيرسل إلى النطع فى يوم السبت .

ولما كان صباح يوم الجمعة أوضحت الليدى نيثديل تفصيل هذه الخطة للسيدة «ملز» التى سيقوم اللود بتمثيلها ؛ وعند ما أمسى المساء انضمت إليهما الآنسة «هلتون» على ان تستقل السيدات الثلاث والخادمة «ايفانز» عربة إلى البرج

وهناك تنتظر الخادمة على بابه ، أما ثلاثتهن فيرتقين الدرجات أمام عيون الحراس إلى غرفة اللورد .

كان على الآنسة «هلتون» وهى رفيعة القد أن ترتدى ثوبين واحد لها وآخر للسيدة ملز حتى إذا دخلت غرفة اللورد تنزع عنها الثوب الخارجى وتسرع بالخروج من حيث أتت ؛ عند ذلك يجىء دور السيدة ملز التى ترتدى ثوبا يصلح للورد ، وكان عليها أن تمثل دور المنتحبة الباكية فتغطى وجهها بمنديل حتى لا يلمح وجهها أحد من الواقفين ، حتى إذا أبدلت ملابسها وارتدت الثوب الذى تركته الآنسة هلتون فى الغرفة من قبل ، تعود من حيث جاءت على أنها تلك الآنسة . فاذا تم ذلك يأتى دور اللورد نفسه الذى يخرج على أنه السيدة « ملز » الباكية المنتحبة . والخطة كما ترى تعتمد على تشويش أذهان الحراس بحيث لا يدركون من الذى خرج أولا والذى خرج أخيرا من أولئك الزائرات .

فلما أعدت اللادى نيثديل العدة ، استقلت عربة فى صحبة السيدتين والخادمة إلى البرج ، وكانت فى خلال ذلك كثيرة الكلام والملاحظة حتى لا يسود رؤوس هؤلاء المتآمرات جو من الوجـــــوم . وما أن وصلت إلى البرج حتى وجدت جمعاً من السيدات ينتظرن رؤيتها وهى فى طريقها إلى غرفة زوجها ، لأن كثيراً منهن لم يكن يعبأن بما تدعيه الليدى من براءة زوجها ،

بل كن يعتقدن أن حكم الإعدام سينفذ عليه فى الغد ، فكان وجود هذا الجمع الحافل من النسوة مما ساعد على زيادة تخبط الحراس .

قادت الليدى نيثديل الآنسة هلتون إلى غرفة زوجها وهناك نزعت الفتاة الثوب الإضافى عنها، وخرجت بصحبة الليدى حتى رأس الدرج حيث طلبت منها بصوت مسموع أن ترسل إليها الخادمة على عجل ؛ عند ذلك جاء دور السيدة ميلز ، فارتقت السلم وهى تنهنه باكية فحيتها الكونتيس وقادتها إلى غرفة زوجها وهناك مسحت دموعها وأبدلت ملابسها ودعتها تخرج ثانية وهى تناديها باسم الانسة هلتون طالبة منها أن تدعو الخادمة فى الحال ، فلما اخترقت السيدة جماعة النساء المتفرجات دخل فى روعهن أنها الانسة هلتون ، ومعنى ذلك أن السيدة ملز ما زالت فى غرفة اللورد .

عند ذلك حلت الساعة الفاصلة ، وأصبح من المحتمل كثيراً أن تنجح المؤامرة إذ اختلطت حقيقة هؤلاء الزائرات على الحراس ؛ فبذلك يتسنى للورد أن يخرج متخفيا فى زى السيدة ملز التى نسبق أن خرجت فى زى الانسة هلتون وهى التى مرقت خلسة دون أن يتنبه إليها أحد . . .

أخذت العشية تخيم على جوانب البرج ، وكان على اللورد أن يغادر غرفته فى تلك اللحظة قبل أن تنفضح حقيقته فى ضوء المشاعل التى تعد بعد قليل . اسرعت الكونتيس وألبست زوجها ما كانت ترتديه من ملابس داخلية فضفاضة ، ولما لم

يـكن لدنه وقت لحلاقة وجهه برقعت وجهه بحيث لا يبدو منه سوى عيناه ، ثم صبغت خديه والصقت خصلة من الشعر جعلتها تتدلى من جبينه والقت عليه العباءة التى جاءت بها السيدة ملز ، ثم قادت اللورد إلى رأس السلم وهى تدعوه باسم السيدة « ملز » طالبة منها أن تسرع إلى منزلها لتدعو خادمتها فى التو لأنها فى حاجة إليها .

سارعت الـكونتس خلف زوجها وكأنها تسند السيدة ملز المتهالـكة إعياء وجزعا، وبذلك أخفت مشية اللورد التى ما كانت لتخفى حقيقتها عن أعين الناظرين لولا أن موقف الوداع هذا قد ألجم ألسن الحراس وأشاع مسحة من الكآبة على وجوه الواقفين ، حتى أن أحد الحواس فتح الباب بنفسه وترك اللورد وزوجته ينطلقان إلى خارج الأسوار ، وهناك كانت الخادمة « ايفانز » تنتظر سيدها فانطلقت بهما العربة إلى منزل فى حى « درورى لين » حيث خلع اللورد ملابسه وارتدى سترة خادم من خدم سفير البندقية ، ومن ثم اندفع إلى شاطىء المانش .

أما الـكونتس الجريئة فقد رجعت إلى غرفة السجن خوفا من أن يكتشف أحد خلو الغرفة ، فارتجت الباب من خلفها بشدة ، وراحت تتكلم بصوت مسموع وكأنها تحدث زوجها ، وطفقت تسير فى الغرفة ذهابا وإيابا بخطى ثقيلة كأنها خطوات السجين الحائر . ثم أنها فتحت الباب وأخذت تودع زوجها الموهوم بصوت يسمعه الحراس حتى إذا اتجهت إلى رأس السلم أغلقت الباب من ورائها ،

وأخذت تشكو إلى الواقفين إهمال خادمتها ، وذكرت للحراس أنها ذاهبة إلى البيت لتقضى حاجة عاجلة على أن تعود فى توها إذا وجدت أبواب البرج مفتوحة حتى تلك الساعة ، وإلا فانها تؤجل عودتها إلى الصباح الباكر لتحمل إلى زوجها أخبارا سارة . ثم إنها رجت الحراس أن يتركوا اللورد وشأنه لأنه منصرف إلى صلاته؛ فلا يرسلوا إلى غرفته مصباحا حتى يطلب ذلك بنفسه .

وعند مامرت الكونتس بحجرة الحراس أقرأوها التحية ونفوسهم تفيض حسرة عليها .

وفى صباح تلك الليله وصل اللورد إلى دوفر حيث وجد مركبا فى انتظاره فأقلته إلى فرنسا ومن ثم إلى روما حيث لحقت به زوجته بعد قليل .

قضت الليدى نيثديل ليلة مؤرقة لم يامس جفونها النوم ، فقد كانت فى كل ساعة من ساعات الليل الطويلة تنتظر مفاجأة ليست فى حسبانها ، فقد يكتشف الحرس هرب اللورد فترسل الحكومة من يتعقبه قبل أن يصل إلى دوفر ؛ وقد تنتقم «ولبول» لهرب زوجها فتصبح منذ الغد أسيرة سجينة فى البرج نفسه . .

وعندما أصبح الصباح كانت أخبار هرب لورد نيثديل قد انتشرت فى كل مكان ؛ فلم تر الليدى نيثديل وسيلة الا أن تلجأ إلى القصر وتطلب المثول بين يدى الملك الثائر ، وقد نجحت هذه المرة فيما فشلت فيه من قبل .

لقد قابل الرأى العام الإنجليزى مؤامرة الكونتس بشىء كثير من الإعجاب حتى أن الحكومة اضطرت لتبديل سياستها حيال المتآمرين . أما الملك فسرعان ما بردت سورة غضبه وراح يضحك ويقول : إن رجلا فى ظروف اللورد نيثديل ما كان ليفعل غير ما فعل ..


هرب
ففقد عرشاً

بعد يوم صائف من أيام شهر يونية عام ١٧٩١ أخذت شوارع باريس تبرد حرارتها ، وأخذت الطرقات تقفر ، وبدأت العربات تكر راجعة بأصحابها إلى البيوت .

وفى أحد أركان شارع «ليشيل» حيث يقطعه شارع «سنت أونوريه» ، وفى المكان الذى يحتله فندق « نورمانديا » فى الوقت الحاضر ، وقفت عربة من العربات الشائعة فى ذلك العصر تنتظر أمام دكان صانع سروج يدعى رونسان ، وكان يخال للناظر أن سائقها ينتظر قبض أجرته من بعض زبائنه ، ولكن رونسان كان فى هذه الساعة قد أغلق دكانه وآوى إلى فراشه ؛ أما سائق العربة فكان يرتدى الملابس المعروفة بين أبناء مهنته ، وكان يقطع الوقت بنشق السعوط والتندر مع السائرين .

دقت الساعة الحادية عشرة ، وازدادت الطرق اقفاراً وظلاما ولكن العربة مافتئت ماثلة فى مكانها . . وفى تلك اللحظة برزت من ناحية قصر التوللرى سيدة متبرقعة تصحب طفلين مقنعين وما أن أومأ اليها السائق حتى اتخذت مكانها فى العربة ؛ وتبعتها سيدة مقنعة أخرى ، ثم جاء على أعقابهـــا رجل بدين تتدلى ذوائب شعره من قبعة مستديرة ، فلما حازى حراس القصر انحنى وكأنه يصلح حذاءه فبذلك أخفى وجهه . ومع أن العربة قد غصت براكبيها بيد أنها وقفت حيث هى لاتزمع رحيلا .

كانت هذه الجماعة الصغيرة من النبلاء ومن حملة الألقاب ؛ أما السائق

فالكونت «الكس فرسين» وهو نبيل سويدى وضع نفسه فى خدمة فرنسا ، أما السيدة المقنعة الأولى « فالدوقة دى تورزيل » مربية أبناء الملك ، ولو أنها كانت تحمل اسما روسيا على جواز سفرها هو « البارونة دى كورف » ، أما السيدة الثانية فمدام اليزابث أخت الملك ، أما الصغار فالأولى الأميرة روايال التى أصبحت فيما بعد الدوقة « انجوليم » ، وكان الثانى ولى العهد ؛ أما الرجل البدين ذو القبعة المستديرة فلم يكن إلا الملك لويس السادس عشر نفسه ! وراحت العربة تنتظر فى مكانها ترتقب وصول الملكة .

مرت شهور والعائلة المالكة سجينة فى قصر التوللرى ، بينما كانت الثورة يستفحل أمرها ويتفاقم أوراها ، وكان التوللرى سجنا حقيقيا ، إذ لم يكن يسمح لنزلائه بالخروج منه حتى ولا لزيارة «سان كلو» إبان عيد الفصح كما جرت العادة . وكان الملك كالريشة فى مهب الريح لايستقر على رأى ؛ لقد مات «ميرابو» الذى كان فى طوقه أن يحمى عرش فرنسا من الانهيار ، فلم يبق الآن إلا العمل على إنقاذ العائلة المالكة بعد أن أخذت السحب القاتمة تتجمع فوق رؤوسها .

أما الملكة «مارى انطوانيت» التى قال عنها ميرابو « إنها الرجل الوحيد الذى يقف إلى جانب الملك » فقد قر رأيها على الفرار من سجنها والهرب من باريس أو من فرنسا بأسرها إلى حيث أصدقاؤها فيما وراء الحدود ،

بعد أن انضم الحرس الوطنى إلى صفوف رجال الثورة ، ولـكن جيش «بوييه» الذى يعسكر على الحدود الشرقية والذى يتكون أساسا من الجنود الألمانية المرتزقة مازال على اخلاصه ؛ وبوييه من أنصار الملـكية الأشداء .

وضع الـكونت فيرسن خطة الهرب ، ومن أجل تنفيذ هذه الخطة هبط دوق «دى شوازيل» باريس ، ومن أجل هذا صنعت عربة خاصة لهذه الرحلة ، عربة ضخمة من الخشب المغطى بالجلد كسيت بالمخمل الأبيض وكان يجرها احد عشر جوادا ، وكانت العربة فى تلك الساعة تنتظر عند البوابة الشرقية لباريس ، بينما كان فيرسن بعربته الصغيرة ينتظر فى شارع ليشيل ليحمل هؤلاء الهاربين الى حيث العربة الـكبرى .

ولـكن أين الملـكة ؟ نعم لقد تمـكنت مارى انطوانيت من المروق من أبواب القصر وهى فى زى خادمة تضع على رأسها قبعة عريضة على نسق ما يرتديه فتيات الغجر ؛ ولـكن الاشاعات عن محاولة الملك الفرار قد راجت وتناقلتها الألسن ، فلما وصلت الملـكة الى البوابة الـكبرى وقد اعتمدت على ذراع أحد الخدم رأت عربة «لافييت» مندفعة نحو القصر ، (إذ أرسل فى طلبه قائد الحرس الذى نصبه المجلس الوطنى عينا له فى التوللرى) فأثار هذا المنظر فزع الملـكة حتى أنها أخطأت الطريق ، فلما وصلت الى النهر انكفأت راجعة ، إذ انها لم تجد أحدا فى انتظارها .

دقت الأجراس معلنة انتصاف الليل ؛ وهناك على مقعد الحوذى لمح فيرسن من بعيد شجبا يعرف صاحبته شديد المعرفة ، هى السيدة ذات القبعة العريضة التى تلبسها الغجريات ؛ انها الملكة ! وهكذا اكتمل عقد الجماعة ؛ ثم ارتج باب العربة ؛ وقرقع السائق سوطه فى الهواء ، واندفعت شمالا تنهب شوارع المدينة النائمة حتى إذا وصلت إلى شارع كليشى توقفت قليلا أمام أحد البيوت ليسأل السائق عن مكان العربة الكبرى فيعلم أنها قد غادرت مكانها منذ نصف ساعة . فانعطفت الجماعة شرقا حتى وصلوا إلى البوابة الشرقية وهناك وجدوا العربة الكبرى فى انتظارهم ، وقد اعتلى مقعدها سائسان من رجال الحرس الملكى نفسه .

* * *

هكذا انتقل الملك والملكة وطفلاها وأخت الملك والوصيفة من هذه العربة الضيقة المقفلة إلى العربة الفاخرة بمقاعدها الوثيرة ومساندها اللينة ؛ وما أن أخليت العربة الأولى حتى عادت أدراجها إلى المدينة ، وفى صباح اليوم التالى وجدت مقلوبة فى بعض الحفر ؛ ثم اعتلى الكونت فيرسن مقعد القيادة وما أن تبدت تباشير الفجر الأول حتى وصلت جماعة الملك إلى محطتها الأولى عند بوندى .

وكان فى انتظار العربة جياد وسواس ، نصّب أحدهم نفسه مكان الكونت

فيرسن الذى نزل من مكانه واستدار حول العربة حيث كانت الملـكة وودعها بكلمات قلائل ؛ فمدت مارى انطوانت يديها ولمست كفه وأسقطت فيه خاتما كبير الحجم من الذهب الباهت؛ فتراجع النبيل السويدى واعتلى صهوة جواده وانطلق صوب بورجيه فبروكسل وهكذا اختفى اسمه من تاريخ فرنسا .

* * *

أخذ النهار يتفتح ، وأخذت العربة الملـكية تطوى الطريق العام طيا تتبعها عربة نقل تحمل خادمتين من خدم الملـكة وبعض الحقائب . وأخذ نسيم الصباح يلمس الوجوه فتفيض نشاطا ، وانفرجت الأسارير وتفتحت الشفاه . ان ساعة ونصف ساعة قد ضاعت فى مستهل الرحلة ، ولـكن العربة راحت تنطلق كالسهم المارق فتقطع نحوا من سبعة أميال فى الساعة . وكانت جميع الدلائل تؤكد أن الخطة قد نجحت مما أشاع البهجة فى النفوس فطفقت الجماعة تتحدث عن المستقبل ؛ فها هى ذى ضواحى العاصمة ومزارع الخضر تختفى وراءهم وتفسح مكانا للراعى والحقول قبل أن تصل المركبة إلى المحطة الثانية عند « موه ».

كانت الخطة أن تأخذ العربة طريق شالون وسنت ميهولد ومن ثم تتابع السير إلى كليرمون وڤارين حيث يكون بوييه فى انتظارهم ، وفى الوقت نفسه كان على بوييه أن يرسل إلى جهة الغرب حرسا من الفرسان إلى شامبانيا ليكون سداً منيعا بين الملك وبين أعدائه ، ولـكن ضعف هذه الخطة

واضح . فلو ذهبت الأسرة المالكة متفرقة متخفية صوب الحدود لكان ذلك أسلم لها ، فإن مثل هذه العربة الفاخرة قمينة بأن تستثير حب الاستطلاع إذا ما انحدرت من الطريق العام إلى الطرق الجانبية فى شامبانيا والأرجون . وفضلا عن ذلك فإن حرس بوييه من الفرسان وأكثرهم من الألمان لابد وأن يوقظوا الشكوك بين سكان القرى الصغيرة على ضفاف نهر الميز حيث يكثر المناصرون للثورة ، فهذه الأخطاء ترجع إلى الملك نفسه ، الذى كانت تنقصه براعة التفكير كما ينقصه الخيال وسرعة البت فى الأمور . فلو ترك الأمر إلى مارى انطوانت وفيرسن لوضعا خطة غير هذه أدق احكاما .

* * *

عند «موه» دخل المسافرون وادى المارن الخصيب ، ومن ثم ارتقوا الهضبة التى يشقها نهر موران والتى اشتهر أمرها إبان الحرب الكبرى ، وتناول الملك وجماعته طعام الفطور من سلة من سلال الرحلات ، فشربوا من كأس واحدة واتخذوا رغفان العيش أطباقا يقطعون عليها اللحم ، وغمرت الجميع موجة من الطمأنينة وراحة البال ، فخرج الأطفال يلعبون على منحدر التل وكان الملك نفسه إذا ماوقفت العربة يخرج ليمشى قليلا ويتحدث إلى الواقفين ؛ لقد كانت هذه منه مجازفة لأن وجه هذا الرجل ذى القبعة المستديرة منقوش على أوراق العملة ولا شك أن لويس قد تعرف عليه الكثيرون فى مكان يدعى «فيل ميزون»

تعرف عليه أحد السواس ولـكنه كغيره من الفلاحين اعتبر هذا أمراً لايعنيه .

وكلما تقدم النهار أرسلت الشمس أشعتها المحرقة على المراعى النائمة فاشتدت الحرارة ، وفى نحو الساعة الثانية وصلوا إلى مكان يدعى « شانتريكس » وهناك عرف الملكَ رجلٌ يدعى فاليه كان يوما من الأيام فى باريس فأسرع وأخبر حماه ناظر محطة البريد . ولو أن كليهما من أنصار الملكية المخلصين إلا أن الأخبار تسربت ولا شك الى غيرهما من أنصار الثورة وما أسرع أن انتشرت هذه الأخبار بين جنبات الريف .

وفى الساعة الرابعة وصلت العربة الملكية تتبعها عربة النقل الى شالون وهى مدينة كبيرة ، لهذا كان من الصعب أن يبقى هذا السر مجهولا . ولـكن هؤلاء الناس كانوا فى غنية من أن يدخلوا أنوفهم فى أمر لايعنيهم ، وقد يعود عليهم بالمتاعب ، إذ ليس من واجبهم أن يقفوا فى طريق الأسرة المالكة إذا عن لها أن تقوم برحلة الى شرق فرنسا ؛ وقد حدث أن رجلا واحداً حاول أن يرغم السلطة المحلية على التدخل فى الأمر ، فلما فشل انطلق بجواده يحمل هذه الأخبار الى بعض المناطق المجاورة المناوئة للملكية . وعلى كل حال فقد خرجت العربة من شالون طليقة وكان الخطر يهدد أصحابها تهديدا جديا ومن ثم اندفعت فى طريق بوييس الذى ينتهى الى «سانت منهولد» وبعد أن قطعت العربة سبعة أميال

أو ثمانيــة وصلوا الى جسر صغير لايجاوره إلا بيت ريفى يطل وحيداً على مساحات فسيحة من الأرض الجرداء التى لا تغطيها إلا الحشائش الداكنة ؛ وتشرف على المكان ربوة تحجب النظر غربا ؛ ولو كانت طبيعة الأرض قد اختلفت عما هى عليه لاختلف تبعا لها تاريخ فرنسا بأسره .

وفى هذا المكان وصلت سرية من جيش « بوييه» أكثر رجالها من الفرق الألمانية المرتزقة يقودها دوق دى شوازيل ، وقد أشاعت أنها جاءت لحراسة بعض التحف والنفائس ، ولكن العذر كان أعرج إذ أى نفائس ترسل على هذا الطريق ؟ وإذا كانت هذه السرية الراكبة من جيش بوييه فعلا فما بالها تندفع نحو مركز القيادة العامة بدلا من أن تتجه صوب الأعداء ؟

وكان من المتفق عليه بين فيرسن وشوازيل أن يصل الملك إلى هذا المكان فى الساعة الواحدة ، وقد وصل شوازيل وجنوده فعلا فى الوقت المحدد وطفقوا ينتظرون الركب الملكى تحت أشعة ذلك اليوم المحرقة . ففى بادىء الأمر لم يكن هنالك سوى الجنود وعدتهم خمسون رجلا وبعض السواس والفلاحين المتفرقين فى الحقول ، ولكن سرعان ماانتشرت الشكوك بينهم وأخذ الفلاحون يهجرون عملهم ويتجمعون حول الفرسان حتى فاقوهم عددا . وقد حدث أن نزاعا نشب بين صاحب إحدى الضياع المجاورة ومؤاجريه فظن أن فرقة شوازيل جاءت لتأخذ الأمر بالقوة . عند ذلك سرى الهمس بأن

القرى المجاورة قد نزعت إلى العصيان ، وأن الثورة قد أقامت من كل قرية قلعة عسكرية .

كانت الطرقات خالية تسبح فى أشعة ذلك اليوم الصائف وكان السكون شاملا إلا فى جوار محطة البريد حيث أخذت جموع الفلاحين تتكاثر وتتساءل مابال هؤلاء الجنود الأجانب لاينزلون عن سروجهم ؟ وما بالهم لايتابعون سيرهم ليستقبلوا العربة التى تحمل النفائس ؟ ثم إذا باشاعة تنتشر ولا يعلم إلا الله كيف نشأت تقول بأن الملك سيمر من هذا المكان !

طفق شوازيل ينتظر وهو معتل صهوة جواده ، حتى إذا نظر إلى ساعته ووجدها الخامسة بدأ الشك يخامره وتيقن من أن الملك لم ينفذ ماعزم عليه . لقد كان ذلك فى نظره أمرا محتملا لهذا أصدر الأمر لرجاله بالعودة ، فبعد أن أبدل جياد عربته الخاصة أنفذ ورقة إلى الضباط فى سنت مينهولد وكلير مونت يفصح لهم فيها عن شكه من وصول عربة النفائس فى ذلك اليوم ؛ عند ذلك ثنى الفرسان أعنة جيادهم وعادوا من حيث أتوا ، حتى إذا ماوصلوا إلى قرية أوريفال انحرفوا يساراً مخترقين غابة الأرجون حتى لايثير ظهورهم الشكوك فى منهولد ؛ فما أن انتصفت الساعة السادسة حتى كان آخر فارس قد اختفى عن الأنظار ، عند ذلك تفرق الفلاحون للعشاء وبدا الطريق الأبيض خالياً خاويا مرة أخرى .

ما هى إلا ربع ساعة حتى كانت العربة الملكية قد وصلت . كان الملك يتعرف على الطريق بخريطة وبدليل يحمله ، فلما وقفت العربة سأل عن اسم المكان ، فتذكر أن شوازيل كان عليه أن يلتقى به فى هذا الموضع ، فساورت الملك وجماعته الريب والشكوك للمرة الأولى . لقد دلت النتائج على أن الدقائق الخمس عشرة كانت فارقا بين النجاح والفشل .

* * *

تقدم المساء ، وبعد تبديل الخيل انطلقت العربة الملكية بين المراعى والطرق الزراعيـــة ، حتى إذا غربت الشمس كانت هضبة الأرجون بأحراشها ماثلة أمام الهاربين ، تمتد تحت أقدامها مدينة سنت مينهولد ؛ وفى ساعة العشية تفيض شوارع هذه المدينة الريفية حياة ونشاطا ، فكان الرجال والنساء على أبواب الحانات والبيوت يشربون ويسمرون . وكانت تجوس خلال المكان قبضة من الجنود الفرنسية تحت إمرة الكابتن داندوان أرسلها بوييه .

وهناك على عتبة دار البريد وقف رجل فى مقتبل العمر يدعونه « جان بابست درويه » كان يوما من الأيام من الفرسان فى جيش كونديه . وكان « درويه » هذا داكن السحنة ، جامد الملامح ، قوى العضلات ، سريع الحركة والبت فى الأمور . وفوق ذلك كان من أنصار الثورة المتحمسين ، سمع ابان النهار

بالاشاعات التى تتناثر من جهة الغرب ، فلما رأى بعينه عربة النقل بأحمالها من الحقائب النسوية تتبعها العربة الصفراء الكبيرة بسواسها ذوى الأردية المزركشة ، تيقن أن وراء الأكمة ما وراءها .

كانت أستار العربة الصفراء منحسرة ، لكى تدع نسمة العشية تسرى إلى داخل العربة فبدا وجها الملك والملكة واضحين لعيون الناظرين . ولكن العربة لم تتمهل بل تابعت سيرها إلى جسر « الايزن » وأخذت ترتقى المرتفع الذى تكسوه الغابات ، ولكن دوريه رأى ما يكفيه لكى يجمع رأيه على شئ . إن الملك والملكة فى طريق الهرب ، ولا بد انهما يتجهان صوب ميتز ! .

لقد كان دورويه كما قلنا رجلا حاسما سريع الحركة ؛ فسرعان ما دقت الطبول ، وألقى القبض على داندوان ورجاله ونزع سلاحهم ، ثم انطلق فى أثر العربة فى صحبة زميل قديم له من فرسان جيش كونديه يدعى وليم صاحب فندق .

طفقت العربة الملكية بجيادها الاحد عشر وسواسها ذوى الحلل الصفراء المزركشة تنهب الطريق الصاعد حتى وصلت إلى قمة مرتفعات الارجون ، وكان عليها بعد ذلك أن تنعطف إلى قرية كليرمونت على مسافة أربعة أميال فى وادى نهر الآير وهناك تنعطف مرة أخرى لتواصل رحلتها إلى ڤارين

وهى تبعد تسعة أميال أخرى تقطعها العربة فى طريق منستوٍ يقع فى بطن الوادى .

اعتلى درويه ورفيقه صهوة آخر جوادين وجداهما فى سنت مينهولد وانطلقا فى أعقاب العربة الملكية التى سبقتهما بساعة من الزمان وكانا يعتقدان انها فى طريقها إلى ميتز ، لهذا كان السباق شاقا عنيفا .

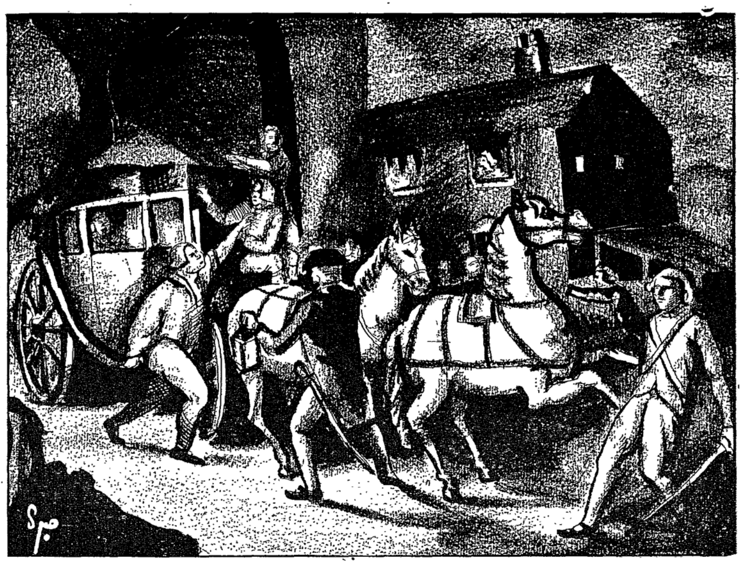
وصلت العربة الملكية إلى كليرمونت فى الساعة العاشرة إلا الثلث ، وهناك وجدوا بعض رجال الجيش الملكى فى انتظارهم فلم يجسر درويه على عمل شىء إذ كان كل ما أمله أن يرفع علم الثورة فوق المدينة التى تناصره . وهكذا أخذت آمال الملك وجماعتـــه تتضاءل بعد تلك الثقة التى كانت تغمر نفوسهم فى الصباح ، وبدأوا يحسون بأن الخطة لم يحسن تدبيرها وانهم وصلوا متأخرين وان عليهم أن يمرقوا من فارين فى الوقت المناسب حتى يكونوا فى حمى جيش بوييه ، فلم ينتظروا فى كليرمونت إلا نصف ساعة لتبديل الخيل ، ومن ثم اندفعت العربة بأقصى سرعتها فى وادى الآير .

فى هذه الأثناء كان درويه ورفيقه ولم على مسافة ميل واحد من كليرمونت. لقد أرخى الليل ستاره ولم يكن يضىء الطريق الا بصيص القمر الباهت، وبينما هما كذلك اذ سمعا أصواتا تقترب وكانت هذه أصوات السواس فى طريق عودتهم من سنت مينهولد ، فذكروا للمطاردين أن العربة الملكية لم تسلك طريق ميتز إذ أنهم سمعوا الأوامر تصدر الى قائد العربة بالانحراف الى فارين .

لم يتعثر درويه فى تفكيره بل حزم أمره فى الحال على أن يسبق العربة الملكية قبل أن تصل إلى ڤارين ، فهجر طريق الوادى المنبسط واندفع صعداً فى الطريق الذى تغطيه غابات الارجون فبذلك يكسب بعض الوقت .

لقد كانت كما دعاها كارليل « ليلة المهماز » فهناك ثلاث جماعات تتسابق للوصول إلى ڤارين ، كان الملك والملكة بعربتهما الفاخرة فى الطريق الأوسط ، وكان الدوق دى شوازيل الذى اختصر الطريق بفرسانه مجانبا سنت مينهولد وسار فى وسط الغابات التى ضاعت فيها معالم الطريق ، بينما انطلق درويه ووليم فى الطريق الجانبى ، فحملت إليهما ريح المساء صوت العربة الملكية من جهة الشرق ، ومع ذلك لم يفقد الهاربون الأمل فى النجاة ، لأن بوييه قد نصب ابنه على رأس كوكبة من الفرسان فى الجانب الشرقى من ڤارين على مقربة من جسر نهر الآير.

بعد أن طوى درويه سبعة أميال انتهى إلى نصب قديم من الحجر أطلق عليه اسم « الفتاة الميتة » ومن هناك انعطف يميناً حتى إذا برز من الغابة بدت لعينه أضواء ڤارين ، ولكنها كانت تبدو غافية ، فلم يبق أمامه سوى أحد عشر ميلا أخرى قطع مثلها فى ساعة كاملة على أرض غير معبدة . وبينما هما واقفين لإراحة جواديهما اللذين أنهكهما العدو المتواصل ، تسقطا صوت العربة ولكنهما لم يسمعا شيئا ، فهل ياترى حدثت الأعجوبة فوصلت العربة سالمة بأصحابها إلى النهر فعبرته إلى حيث الأمان فى كنف بوييه ورجاله ؟



الهرب إلى ڤارين ..

انطلق درويه إلى الحانات يسأل روادها المتأخرين عن عربة فاخرة فى ذلك الطريق ، ولـكنهم أجابوه نفياً ؛ إذ لم تعبر عربة من العربات طريق ڤارين فى تلك الليلة ، وفجأة دوى صوت صائح فتلفت درويه خلفه فإذا به يلمح على رأس طريق كليرمونت المنحدر أضواء مصابيح العربة المنشودة التى كانت واقفة فى انتظار رجال حرس بوييه !

ولم يمض طويل حتى عاودت العربة المسير ، وأصبح صريرها يسمع من بعيد، عنـد ذلك اندفع درويه إلى خان يدعى « الدرع الذهبى » يستنهض همة كل رجل فيه باسم فرنسا ليعمل على وقف العربة التى تحمل الملك الهارب .

لم يكن لدرويه سوى وسيلة واحدة هى أن يقفل جسر الآير . وحـدث أن عربة ضخمة من عربات الأثاث كانت منتظرة على ذلك الجسر وقد حلت منها الخيول استعداداً لسفرها فى الصباح، فما كان من درويه وقبضة من أتباعه إلا أن قلبوا العربة فى مكانها فبذلك استحال المرور على الجسر . وفى تلك الأثناء ظهر عمدة القرية على المسرح وعمل على أن يوقظ أهل كل بيت على ضفة النهر الغربية .

كان الطريق إلى الجسر يمر بقبو كنيسة قديمة ، وعند هذا القبو وقف رجلان يحملان سـلاحا ، حتى إذا مرت العربة أمراها بالوقوف . وعندما طلبت جوازات السفر وأخذت البارونة دى كورف تبحث عنهـا أطلت الملـكة من النافذة ، وزجت الرجال الواقفين كائناً من كانوا أن يقوموا بواجبهم على وجه من السرعة ، لأنها ترغب فى الوصول إلى حيث تسافر بأسرع ما يمكنها .

لقد كانت هذه كلمة شؤم ذكرت عنها فيما بعد !

فى أثناء ذلك كان الرجال المسلحين يزدادون عـدداً ، بيد أن المسئولين وجدوا جوازات السفر صحيحة، لهـــذا لم يروا مندوحة من الإفراج عن العربة وأصحابها . لقد كانت الملـكية فى كفة القدر ، وكاد ينتهى الأمر لولا أن تدخل درويه الذى كان يعـلم أن بوييه الابن فى انتظار العربة الملـكية على الضفة الأخرى من النهر وأن أباه سوف يصل فى مطلع الفجر بقوات كافية لنجدة الملك . كان على درويه أن يجـاهد الزمن ، فلا يسمح لعربة الملك أن تعبر جسر الآير بحال من الأحوال حتى الصباح .

نجح درويه فى تهديد العمدة وأرغمه على أن يؤخر ختم جوازات السفر إلى الصـباح إذ ان الليلة دامسة الظـلام والخيل مجهدة منهوكة . فلم يجد الملك والملـكة مندوحة من قضاء الليل فى بيت العمدة ، ومع ذلك كله فلم تتلاش آمالهما . إذ أن هناك شوازيل وفرسانه فى انتظارهم ، أولئك الذين راحوا يتخبطون فى غابات الأرجون ؛ بينما طفق درويه يدق الطبل حتى أيقظ كل هاجع فى ڤارين فزخرت بهم الشوارع وراحوا ينتظرون حدوث حادث لا يعرفون ماهو .

وعندما انبلج الفجر وصل شوازيل وفرسانه الألمـان وعمل على إنقاذ الملك بالفعل فأمر رجاله بمحاصرة بيت العمدة وتطهير الشوارع من الناس باستخدام النار، ولو كان رجاله من الفرنسيين لحالفه النجاح ، إذ أن الطرقات حول البيت قد مزق سكونها

دق الطبول وصياح الرجال الذين هرعوا إلى حمل ما وجدوه من سلاح حتى اكتظ بهم الميدان . أما بوييه الابن فعند ما طرق أذنه دق الطبول لم يعرف ماذا يصنع فقفل راجعاً إلى معسكر أبيه .

وما أن تفتح الصباح حتى كان أهل الناحية متراصين حول بيت العمدة ، ولما كان مسيو « سوس » أحد أولئك الذين يمجدون الرسميات فقد بصم على جوازات السفر وسمح للأسرة المالكة بالسير . ولكن درويه كان له رأيه ، وكان هذا الرأى قد اعتنقته الجماهير التى زخرت بها الشوارع .

لم تكن الفرصة قد فلتت بعد من يد شوازيل لو لم يكن رجاله من الجنود المرتزقة ، ولكنهم وقد رأوا هذه الجموع المتراصة أمامهم امتنعوا عن إطلاق النار عند ما أمرهم بذلك للمرة الثانية . وفى هذه الأثناء أطل الملك فى معطفه الأخضر من النافذة ، فقابلته الجماهير بالهتاف وبشىء آخر جعل آماله تنهار أمام عينه ، عندما أخذت عشرة آلاف نفس تنادى بصوت واحد «إرجع إلى باريس!»

وفى الساعة السادسة أو نحوها وصل إلى ڤارين رسولان من المجلس الوطنى فى باريس ، وصل بايون وروميف بعد رحلة جنونية سلخافيها يوماً وليلة يحملان أمراً من المجلس بعودة صاحبى الجلالة على الفور . لقد أثار ذلك غضب الملكة فألقت بالرسالة على الأرض ، أما الملك فكان قد حزم أمره ، فقرر العودة إلى باريس حيث يجد الترحيب دائماً من أهلها إذ هو بطبعه يأنف من حياة التستر التى لا وقار فيها .

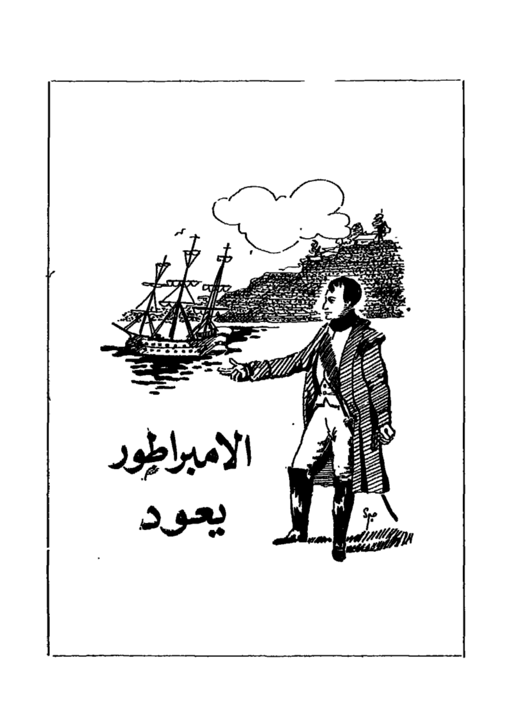
لم يكن هناك مجال للخيرة . فطلائع فرقة بوييه بدت إذ ذاك على جسر الآير، ولكن كان عليها أن تواجه جمهوراً قوامه عشرة آلاف رجل لايشتت شملهم إلا المدافع ؛ ولو أن بوييه قد وصل فى الوقت المناسب لما فعل شيئا .

* * *

وفى نحو الساعة السابعة ، كان بوييه نفسه على جسر الآير يتبع بعينه سحابة تراب ترتفع من طريق كليرمونت حيث العربة الملكية فى طريق عودتها إلى باريس يتبعها آلاف من المواطنين .

لقد انتهت المغامرة ، وتحطم أمل كاد أن يكون يقينا ، بسبب سلسلة من الأخطاء اكتنفها سوء الحظ .

وهكذا عاد الملك والملكة إلى سجن لم يفتح بابه إلا إلى درجات المقصلة .


الامبراطور
يعود

أشرق القمر ولمّا تدق الساعة التاسعة بعد ..

وكانت الليلة ساكنة ، فسرت الأصوات سابحة فوق سطح الماء، وهناك عند مرفأ الجزيرة الصغير المنخفض اصطفت السفن منشورة الصوارى فبدت كأنها مرسومة على لوحة الفضاء الفسيح ، ووقفت الجماهير تنتظر ، ووقفت المدينة بدورها تنتظر خلف الجماهير ، تنظر من خلال نوافذها المفتوحة المضيئة إلى الميناء الصغير ، وكانت الأضواء تلمع فى كل مكان على منحدرات التلال . . .

وكانت الدروب الضيقة تفيض بالحياة ، وكانت أسقف المنازل غاصة بالنظارة وكانت الجدران مستورة بصفوف المنتظرين . ولم تعد تسمع نغمات الغناء والانشاد . لقد كان ذلك منذ ساعتين عندما دوى الهتاف عاليا فى ركاب عربة مفتوحة انحدرت نحو الشاطئ وقد تبعتها عصبة من الرجال تسير على الأقدام ، ولم يكد يصل الموكب إلى ضفة الماء حتى استحال الهتاف إلى غناء ، وأخذ الملاحون يتجاوبونه بأصوات قوية انتشرت فى كل اتجاه كأمواج البحر .

وسمعت أصوات المجاذيف تنغمس فى الماء الأسود وتحرك سا كنه ، وسرى ضوء فوق ظهر الماء وانتهى إلى سفينة راسية ، ثم انطلق مدفع ، حتى إذا ما تبدد الدوى فى الفضاء عاد السكون وغمر المكان من جديد ؛ ولكنهم ما فتئوا ينتظرون أن تهب الريح وقد وافت الساعة على التاسعة .

وفى غرفة خالية على رأس ذلك التل ، تقع العين على كتاب مفتوح راح ينتظر صاحبه فى سكون إلى جوار سرير للنوم ، وأشرق القمر و نفذت أشعته إلى الغرفة، وتسلطت على الأوراق الممزقة المنشورة على أرض المكان ، وعلى مصور جغرافى كبير مفتوح ثبت عليه أحد من الناس جملة دبابيس ذات رءوس ملونة . وعلى سطح الماء الداكن صمتت الأصوات وطفقت الجماهير المترقبة بل البيوت البيضاء والتلال التى غمرتها أشعة القمر تنتظر هبوب الريح .

مرت الساعات تباعا ، ثم دقت ساعة عند الشاطئ اثنتى عشرة دقة ، لقد انتصف الليل ! وفى تلك اللحظة هبت نسمة من الجنوب فسرت بين حنايا تلك الحلكة الدامسة ، عند ذلك خفقت الأشرعة المنشورة وكأن الحياة دبت فيها ، وأخذت الأذرع المكدودة تعمل جاهدة ، ولم يمض طويل حتى تحركت القافلة البحرية فى صمت تغزو الماء والظلام .

وخلف المغامرون جزيرة وراءهم غارقة فى ضوء ليلة قمرية من ليالى الربيع .

اسم هذه الجزيرة إلبا .

وتاريخ تلك الليلة ٢٦ فبراير ١٨١٥

تحركت القافلة جماعة ؛ السفينة انكنستانت، وستسفن أخرى دونها حجما، واستقل سفينة القيادة أربعمائة من الرجال ، ارتدوا معاطف الميدان الكبرى ، كما حملت بعض المدنيين وكوكبة من الجياد المسرجة ، بينما تجمع ستمائة رجل

آخرون فى تلك المراكب الساحلية الصغيرة ذات المصابيح الجانبية التى كانت تتأرجح فى ضوء القمر ، وأخذ الواقفون على الشاطئ يرقبون الأشرعة البيضاء المنشورة على صفحة السماء الزرقاء الداكنة، وكان ضوء مصباح المراقبة ينير صارية سفينة القيادة، ثم أخذ هذا الضوء فى الخفوت شيئا فشيئا حتى خرجت القافلة من الخليج الساكن المقمر إلى عرض البحر الفسيح .

كانت الريح جنوبية، وهكذا دفعت القافلة إلى ساحل أوربا ، ولكن ما تنفس الصبح حتى سكن الهواء ، ولاحت لراكبي سفينة القيادة فى ضوء الفجر المتفتح سفينة حربية بريطانية ، هى التى كانت تحمل مندوب القوات الحليفة فى طريقه عائداً إلى الجزيرة ، فكان على الهاربين أن يعملوا جهدهم للمروق سراعا إلى بر الأمان ، قبل أن تشيع أخبار هربهم .

وبعد ظهيرة ذلك اليوم بدت فى الأفق سفينة حربية أخرى ، لقد كانت طرادة فرنسية أقلعت من طولون . وفى تلك الأثناء كان أسطول نابليون الصغير قد تفرقت مراكبه فى عرض البحر وأصبحت سفينة القيادة منفردة بنفسها فكان لابد من الاستعداد للطوارئ ، فهرع الجنود إلى المدافع ورفعوا أستارها ، وأداروا فوهاتها ، حتى إذا تم ذلك فى حذر وحيطة ، دوى صوت مجلجل يأمر رجال الحرس بخلع معاطفهم والارتماء على بطونهم فوق سطح السفينة ، حتى لا تلمحهم عين متطلعة من عيون الطرادة العابرة .

وكانت الريح تهب رخاء فحملت الطرادة صوب سفينة الهاربين حتى حاذتها ، عند ذلك رفع أحد ضباط السفينة البوق إلى فمه وحيا الطرادة بكلمات تفيض براءة . . .

— إلى أين المقصد ؟

— إلى ليجهورن . . وأنتم أين تقصدون ؟

— إلى جنوا . أمن حاجة إلى رسالة نحملها ؟

— لا شكراً ! وكيف حال الرجل الكبير ؟

— إنه بخير عميم !

نعم لقد صدق المتحدث ، لأن ذلك الرجل الذى يميز بعريض أكتافه وبعطفه المشهور كان واقفا على غير بعيد من المتحدث . وكانت الكلمات يحملها الهواء الرخى فترن واضحة جلية فى الآذان ، وهكذا سار نابليون ميمما شطر ساحل فرنسا ...

لم يكن يخطر على بال أحد أن يظهر نابليون من جديد على المسرح الفرنسى ، ولم يكن ليخطر على بال أحد أن يلتقى إنسان بالامبراطور المنفى فى عرض البحر على ظهر سفينة حربية ذات ستة عشر مدفعا ؛ إذ ان العالم كاد ينسى أمره بعد أن أخذت بواكير السلام ترفرف عليه .

نعم لقد ألقت أوربا السلاح منذ عام ، وبدأت ترتب شئون

بيتها منذ أن زلزلت أركانه حروب تلك الثورة الكبرى التى لم تشهد مثلها من قبل .

* * *

فى تلك الأثناء كان رجال السياسة مجتمعين فى ڤينا يعملون ما وسعهم الجهد فى عقد الاتفاقات وترويق المعاهدات ، فأرجعوا حدود فرنسا إلى حيث كانت قبل نابليون ، ثم راحوا يقيمون الملوك الذين زلزلت عروشهم فى مكانهم القديم ، كما يفعل الخزاف عندما يلصق قطع الخزف المكسورة جنبا إلى جنب ، أما الملك جورج الثالث الانجليزى فمازال على عرشه ، بينما عاد لويس الثامن عشر الفرنسى إلى قصره مرة أخرى وقد حكّم فى أعدائه حد الجيلوتين !

لقد قرر الحلفاء المنتصرون التخلص من نابليون ، ولكنه وقد اعتزل العرش لم تكن هنالك ضرورة للقسوة عليه ، لهذا اقترح القيصر أن يمنحه الحلفاء معاشا وأن يتركوا له لقبه ، ولكن حريته كانت خطراً على سلام أوربا التى لم تهدأ ثورتها بعد ، فكان لابد من حاجز مائى يفصل ما بين هذه الشخصية المتقلقة وأرض القارة ، فكان أن بحثوا له عن جزيرة تكون له مثوى ومنفى ، فتخيروا له كورفو ثم تخيروا له كورسيكا . ثم قر قرارهم على هذه الجزيرة الصغيرة « إلبا » فأصبحت « إلبا » منذ وطئتها قدم نابليون أصغر أمبراطورية فى العالم .

ومنذ اللحظة الأولى تسلطت على نابليون فكرة تمثيل الامبراطورية ،

فقضى الشهور الأولى يذرع أرض هذه الجزيرة دون كلل أو ملال يدرس ويبحث ويفكر ، حتى إذا أجمع رأيه على شيء بدأ فى تنفيذه بذلك العقل الجبار الذى كان يدير به شئون أوربا جميعها ، فأنشأ له وزارة للحرب وبحث شئون الدفاع الساحلى ، وراح يصدر اللوائح والتنظيمات ويحل المشاكل بتلك السرعة التى عرفت عنه ، ولأول مرة فى تاريخ « إلبا » عرفت هذه الجزيرة الصغيرة معنى النظام ، بل انه على رأس التل أحال بيتين ريفيين إلى شبه قصر أمبراطورى ، وعلم فلّاحات « إلبا » أصول التقاليد المرعية فى قصور الملوك .

لقد كانت جميع الشواهد تدل على أن الامبراطور قد نسى ماضيه العظيم ، وانه قد بيت العزم على أن يجعل من إلبا مثواه الأخير . نعم إنه لم ينس كرامته وغروره كامبراطور فنقش شعاره الملكى على الحائط ، بل لم يغب عنه أن يأمر المجلد فى ليجهورن بأن ينقش حرف N على كعوب كتبه . وكان يقضى لياليه يلعب الورق مع أمه التى يحبها (والتى كان يغشها كذلك) ومع أخته العزيزة ، حتى إذا استعد للنوم راح إلى المعزف ينقر بأصبع منفرد نغمة واحدة متكررة .

أتراه نسى كل ذلك التاريخ الحافل ؟ لا يظن أحد ذلك ، « فإلبا » أصبحت منذ أن وطئتها أقدامه مقصداً للزوار والسائحين ، وكان من جانبه يرحب بهم لاسيما إذا كانوا من عظماء الانجليز . فقد كان يتحدث إليهم

عن ماضيه ويستوضحهم شئون العالم المنكورة عنه ، يستخبرهم عن مؤتمر «ڤينا» وما يدور فيه ، وعن فرنسا وما يجرى فيها من احداث. فكان يسأل زائريه : ألا فأصدقنى القول ، أتظن فرنسا راضية سعيدة ؟.

فإذا ما هز زائره كتفيه ، يجيب نابليون عن سؤاله بنفسه : ان فرنسا لن تكون راضية ، بعد أن نكست هامتها شروط الصلح القاسية ، ان ملك فرنسا صنيعة انجليزية ، فضلا عن أن تعيين ولنجتون سفيراً فى باريس ليس من اللياقة فى شىء ، وفوق هذا فإن فرنسا لن يستريح بالها باقتطاع بلجيكا من الامبراطورية وهى التى يعتبرها كل فرنسى قطعة من أرض الوطن ، لقد كانت فكرة استرجاع بلجيكا كالكابوس تلاحقه فى كل مكان .

لم تعد تشغل بال نابليون شئون مملكته الزراعية ، لقد بدأت أفكاره تتجه صوب ذلك الشاطىء الذى يفصله عنه خيط مائى أزرق . ولم يكن أولئك الساسة المجتمعون فى ڤينا ليتصورون أن نابليون مافتىء يفكر فى فرنسا ، لقد كانوا فى ذلك جد مخطئين مع شدة حذرهم وتيقظهم .

وفى شهر فبراير المنصرم اقترب من شاطىء الجزيرة قارب يحمل ملاحا إيطاليا ، ولم يكن ذلك الملاح إلا «فايرى دى شابولون» أحد أنصار بونابرت الأشداء ، جاء يزور سيده متخفيا ، جاء إليه ليروى كيف أن فرنسا قد سادها القلق ، وكيف ان مؤامرة تدبر فى شمالها للتخلص من الملك لويس وإعلان الوصاية باسم نابليون الصغير ؛

عند ذلك صاح الامبراطور : ولماذا الوصاية ؟ أميت أنا ! .

كانت مقابلة فليرى هذه خاتمة كل شك أو تردد فى نفس الامبراطور ، فما كاد زائره يعود من حيث أتى حتى صدرت أوامر نابليون بإعداد الأسطول الصغير للعمل . فطليت السفينة الأولى بحيث بدت كأنها مركب بريطانى ، ووسقت السفن الأخرى بأنواع الأطعمة والعتاد وصرفت للجنود أحذية جديدة ، ثم نقلت عربات الامبراطور إلى ظهر مركب من هذه المراكب .

لقد كانت الجزيرة خلال هـذا الأسبوع فى شبه حمى ، حتى إذا كانت الليلة الموعودة سكنت الريح وهدأت مياه البحر وتوج القمر أفق السماء !

حدث هذا وكأن الأقدار قد شاءت أن يحـدث ، لأن المندوب الذى عينته دول الحلفاء ليراقب الامبراطور فى منفاه قد تغيب بضعة أيام فى ليجهورن !

* * *

عندما تفتح فجر اليوم الثانى ، كانت سفينة الامبراطور كنقطة متحركة على سطح الماء الأزرق الفسيح ، وعندما تنفس الصبح بدت من بعيد سلاسل الألب متألقة ساكنة ، وتحت منحدرات هذه القنن كانت تنام قرى لأسمائها رنين كرنين الأجراس الفضية فى أذن كل فرنسى ، انها أسماء تلك المواقع التى انتصر فيها القائد بونابرت ، والآن فى سكون الفجر تسبح مركب الامبراطور الشيخ فى ظلال هذه المرتفعات التى كأنها ترقبه فى سكون وخشوع . .

وقبل أن ترتفع الشمس كثيراً فى الأفق لمح المراقبون بارجة حربية انجليزية من بعيد

ولكن سرعان ما اختفت متجهة صوب سردينيا، وهب النسيم لطيفاً أثار الذكريات في نفس نابليون الذى تلفت باسماً حوله قائلاً : إنه جو « اوسترلتز[١] » . وبعد ذلك لم يعد من سر محجوب عن أبصار هؤلاء المغامرين . انهم فى طريقهم إلى فرنسا يأخذونها على غرة ، نعم إنه لم يحدث من قبل أن غامر ملك بمثل ما يغامر به نابليون ، ولكنه كان يعتز بهذا التفرد فى التفكير ، وكان يطمئن رجاله بأن الثورات قد رفعت رأسها فعلا فى باريس ، أما فى شمال فرنسا فقد أعلن الجيش العصيان ، وأقيمت حكومة مؤقتة هناك ! لقد كان نابليون يلعب بخيال رجاله ، بل انه لم يتردد فى أن يؤكد لهم بان فرقا من الجيش قد رفعت إليه يمين الولاء والإخلاص !

ـ إننى سأدخل باريس دون أن أطلق رصاصة واحدة !

وفى جوف السفينة جلس عشرات من رجال الحرس ينسخون بأصابعهم التى لم تألف الكتابة السريعة منشوراً كتبه الامبراطور وطبعت منه بضع نسخ فى الجزيرة ، انه أول نداء يوجهه نابليون إلى أهل فرنسا بعد اعلان تنازله عن العرش، انه نداء يفيض عاطفة تهز مشاعر كل فرنسى، لأنه يذكرهم بذلك المجد الذى بناه لهم من مدريد إلى موسكو، يحذرهم من الخونة ويذكرهم بخنوع آل بربون وذلتهم، ثم إذا به يكتب منشوراً أخر يدعو فيه الجيش إلى العصيان ، ثم ثالثا نطلب فيه من الحرس الوطنى أن يؤدوا واجبهم ويدوسوا شعار الملكية بأقدامهم .

(١) إحدى المواقع الكبرى الذى انتصر فيها نابليون على الامبراطورية النمسوية .

وهكذا انقضى ذلك اليوم بين إعداد المنشـورات ومنح الأوسمة وتزيين الأكتاف بالشارات ، حتى إذا أمسي المساء اقتربت سفائن الأسطول بعضها من بعض . وعندما بزغ صباح اليـوم الأول من شهر مارس بدت شواطىء فرنسا للعيون. عند ذلك اعتلى الامبراطور ظهر السفينة ، وأمر برفع العلم الفرنسى المثلث ، حتى إذا وصل رأس الصارية علا الهتاف داويا من جميع سفن الأسطول .

وقبل أن تقبل العشية رسا هـذا الأسطول الصغير فى خليج جوان ما بين انتيب وكان ، فنزل الجنود إلى الشاطىء وأفرغت السفن من الميرة والذخيرة ، وما أن أمسى المساء حتى كان الامبراطور على أرض فرنسا .

* * *

لقد بدأت المطاردة ، فمذ وصل المغامرون إلى أرض فرنسا أصبح التفكير فى النكوص أمراً مستحيلا ، فهناك على تلال الجزيرة خلفوا وراءهم ضابطا انجليزيا غاضبا ثائراً عندما وجد بيت سجينه خاليا من صاحبه ، فلا بد أن أخبار الهرب قد انتشرت ، لهذا كان عليهم أن يسرعوا الخطى قبل أن يتعقبهم المطاردون .

وفى هذه الأثناء كانت أوربا تعيش فى أوهام السلم ، كانوا فى لندن لا يتحدثون إلا عن زواج لورد بايرون ، وعن سيدات القصر الجـديدات ؛ وعن أخبار بعثة أورليان ، وكان الباريسيات يستعرضن آخر الأزياء فى التويللرى ، وكان الساسة فى ڤينا ؛ يتسابقون بالعربات الفاخرة حول شوارع المدينة .

بينما كان العـالم سادراً فى أحلامه هكذا ، كان رجل عريض الأكتاف

يستره معطف طويل فضفاض يجلس التماسا للراحة حول نار موقدة تحت ظلال الأشجار فى الطريق إلى مدينة كان الصغيرة ذات ليلة رائقة باردة ، إنه من العجب أن يغزو رجل واحد فرنسا بأسرها على رأس ألف من الاتباع وبنداءات ثلاث مطبوعة! جلس هذا الرجل المغامر ينتظر عودة رسله ؛ إذ بعث جماعتين من رجاله ، الأولى فى اتجاه انتيب وهذه لاأثر لها ، والثانية فى طريق كان ؛ ولـكن رجاله كانوا يسقطون على الأرض اعياء ، وقيل ان مبعوثيه إلى انتيب قبض عليهم ، ولـكن الامبراطور لم يفعل شيئا فى سبيلهم ، إذ ان الوقت أثمن من انقاذ حفنة من الرجال.

لقـد كان يقول « إذا قبض على نصف رجالى فما زال لدى النصف الآخر ، وإذا قبض على كل رجالى فما زلت أنا أواصل السير منفرداً إلى باريس ».

لاريب أن أخبار هروبه قد فشت، لهذا لم يكن بد من أن يسرع من توه ، فلما انتصف الليل كان الرجال على أهبة الرحيل وقد نقد كل واحد منهم مرتب أسبوعين ، فتحركت الفرقة صوب كان ، تحت ضوء القمر ، وعندما وصلوا إلى المدينـة عسكروا فى ظاهرها ، فما أسرع أن اجتمع حولهم أهلها الذين كانوا فى حيرة من أمر هؤلاء الغرباء إذ أنهم عندما أبصروا السفن تقترب من الشاطىء فى الصباح ، حسبوا المغامرين عصابة جزائرية من القرصان ، ولم يخطر لهم على بال ان الامبراطور نفسه على رأس هذه الجماعة !

لم يرد الامبراطور أن يعيد ذكرياته المريرة عندما كان فى طريقه إلى المنفى منذ عام مضى، لقد كان أهل بروفانس ثائرين حانقين ، لقد كانت جماهيرهم تصفر

وتصيح فى وجهه ، وكانت شتائمهم ترن فى أذنه . لهذا أبى أن يجعل طريقه إلى باريس فى وسطهم ، فانعطف شمالا وسار نحو جرينوبل إذ له فيها أصدقاء وأنصار .

وهكذا سارت هذه القافلة فى طريق جبلى وعر مقفر ثلاثة أيام طوالا ؛ كانت قافلة من الجنود والبغال والفرسان الذين كانوا يسيرون صعداً على الاقدام يحملون سروج الخيل على أكتافهم. لم يكن فى هذه القرى صديق يحييهم ، لم تكن تنتظرهم صفوف الجماهير تصفق لهم وتشجعهم، بل ان «جراس» نفسها فكرت فى مقاومة هؤلاء المغامرين ، إذ أعلن عمدتها أنه مخلص للملك ؛ وكان من المحتمل أن يحدث أكثر من هذا لولا أن جنرالا متقاعداً من أهلها ثبط عزيمته بدعوى خلو المدينة من البارود، ثم جاء بعض الناصرين القلائل يحملون باقة أزهار إلى الامبراطور وشيئاً من النبيذ إلى رجاله، ثم وفد عليهم جندى أعمى متقاعد جاء يسعى تقوده امرأة ليقبل يد نابليون، الذى سمع لأول مرة منذ أن ترك إلبا فرنسياً يصيح «ليحى الامبراطور ! » .

وفى ذلك اليوم وصلت أخبار نابليون إلى مرسيليا ، وما أسرع أن بعث الجنرال «مسينا» فرقة من جنوده لتقطع الطريق على أولئك الآبقين ولكنها لم تلتق بهم إذ أن القافلة سبقتهم ، وفى الوقت نفسه بعث « مسينا » برسالة إلى ليون حملها بعض الفرسان ، ومن هناك نقلتها أسلاك البرق الحديثة إلى باريس .

***

أعاد الملك قراءة هـذه الرسالة العجيبة وهو فى قصر التيللرى ، ثم بعث فى طلب «سولت» وزير الحرب ، وكان سولت متشككا حتى توافرت له الشواهد

على صدق البرقية ، ومن ثم عكف على صد هذا الهجوم المباغت ، فأرسل ثلاثين ألفا من الجنود وعلى رأسهم أخو الملك وولداه ، وان كان الثلاثة من غير رجال الحرب المدربين ، ثم فكر فى أن يستعين بقواد نابليون القدماء أولئك المرشالات الذين تخلوا عنه فى محنته الأخيرة ، فأرسل فى طلب ماكدونالد وسان سير وناى ، وفى الليلة نفسها كان هذا الجيش فى طريقه إلى ليون .

وفى تلك الساعة وعلى مسيرة ثلاثمائة ميل كان نابليون يغط فى نومه على أصوات الموسيق والراقصين فى شوارع « جاپ » . لقد أصبح من المؤكد أن المنشورات فعلت فعلها بين الفلاحين ، الذين دعوا نابليون « امبراطور الشعب الفرنسى » وراحوا يتدافعون فى طريقه يحيونه ويهتفون له ، ويسيرون فى ركابه ؛ ولكن شكوكه فى إخلاص المدن الكبرى له مافتئت تقض مضجعه ؛ بل إن الجيش نفسه الذى اعتمد على ولائه قد استعد للوقوف فى وجهه ، فقوات مسينا تلاحقه من الخلف ، وفرق سولت تقطع عليه الطريق إلى باريس .

وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه حدثت التجربة الأولى ، إذ ما اقتربت القافلة من « لافراى » وانعطفت مع الطريق ، حتى وجدت فرقة من المشاه تقطع عليها السبيل . لقد كان الموقف حرجا وكان من المستحيل أن يتحاشى الامبراطور لقاء هؤلاء المتحفزين للقتال . عند ذلك نزل نابليون من عربته وراح يكشف الطريق بمنظاره ، بينما اندفعت جماعة من الفلاحين المرافقين له نحو الفرقة وراحوا يرفرفون لرجالها بتلك المنشورات التى يحملونها ، ولكن بدون جدوى .

وعند ما تقدم أحد الضباط إلى رئيس الفرقة وسأله عما إذا كان فى نيته أن يطلق النار فى وجوههم، كان جوابه أن من واجبه أن يفعل ذلك . ثم جاء على عقبيه أحد الياوران يعدو على فرسه محذراً رجال الفرقة من أن الامبراطور فى طريقه إليهم وانه إذا أصيب بشر فإن فرنسا سوف تعتبرهم مسئولين عن جريتهم، ولكن الفرقة لزمت الصمت وطفقت ترقب طلائع السرية المتقدمة ، وعلى أعقابها بدا رجال الحرس الامبراطورى .

لقد كانت اللحظة رهيبة عندما أصدر قائد الفرقة الأمر لرجاله للتأهب فثبتوا حرابهم فى أطراف بنادقهم ؛ عند ذلك تقدم الامبراطور نحوهم راجلا ، بينما نكس رجاله أسلحتهم حرصاً على إشاعة روح المسالمة .

فى تلك اللحظة صاح أحد الضباط بصوت متهدج : «هذا هو، أطلقوا النار!»

ولكن صوتا واحداً لم يجب على هذا الأمر ، إذ وقف رجال الفرقة يحدقون النظر فى دهشة إلى ذلك الرجل الذى يتقدم نحوهم، ثم إذا به يقف وإذا بهم يسمعونه يتكلم :

— يارجال الجيش الخامس ، انني امبراطوركم ، ألا فاعلموا ذلك ..!

ولكن مامن صوت كسر هدأة ذلك السكون ؛ عند ذلك تقدم الامبراطور بضع خطوات ، ثم فتح معطفه . وعاود الكلام بصوته الهادىء :

— إذا كان بينكم من تسول له نفسه أن يقتل امبراطوره فها أناذا .

عند ذلك لم يعد للصمت مكان ، إذ دوى الفضاء بالهتاف :

— ليحى الامبراطور !

ثم إذا بنظام الفرقة يختل ، وإذا برجالها يتسابقون إلى حيث هو يلمسون سيفه ومعطفه ، بل وحذاءه ، وهم يلوحون بخوذاتهم منصوبة على أطراف بنادقهم في الفضاء . وهكذا كان الفوز حليفه !

ثم سار الموكب إلى جرينوبل ، وفى الطريق تقدم أحد ثراة المدينة يحمل علما مثلث الألوان ومائة ألف فرنك فقبل نابليون كلتا الهديتين، ثم جاء أحد الضباط من أنصاره يقود فرقته وانضم إلى الموكب ، حتى إذا أرخى الليل سدوله وصل المغامرون إلى أرباض جرينوبل نفسها التى كانت شوارعها تعج بالناس وكان هتافهم يؤكد ولاءهم للامبراطور . بيد أن أبواب المدينة كانت مقفلة ، وعلى أسوارها ركبت المدافع .

ولكن لم يطل هذا الصراع الصامت طويلا ، إذ أن ولاء الجنود للامبراطور كان لاشك فيه ، فلم تمض ساعتان حتى فتحت الجماهير أبواب المدينة قسراً فانساب الموكب فى الشوارع يحييه آلاف المناصرين .

وهكذا انقضت المرحلة الأولى من هـذه المغامرة الجريئة ، وهكذا انقضى أسبوع منذ أن وطئت أقدام نابليون أرض فرنسا ، ولكن الطريق إلى باريس ليس هينا لينا كما كان الطريق إلى جرينوبل .

وفى الغد وكان من أيام الجمعة ؛ تحرك موكب الامبراطور متجها صوب ليون تصحبه جماعات الفلاحين والمناصرين القدماء وهم ينشدون الأناشيد كما تؤيده خمس فرق كاملة من الجنود، وفى ليون نفسها كان الكونت «دارتوا» شقيق الملك يستعرض

الجيش فى سكون مقبض، وعندما وصل «ماكماهون» إلى قصر بلكور صاح أحد الواقفون محييا المرشال ، ولـكن أحداً لم يستجب لندائه عندما تكلم عن واجبهم نحو الملك.

ولم يتقدم المساء حتى كانت طلائع موكب الامبراطور تقترب من المدينة ، تتقدمه جماعات الفـلاحين وقد عقـدوا مناديلهم فى أطراف عصيهم وهم يهتفون «ليحى الامبراطور!» وعندما وصلت عربة نابليون واخترقت شوارع المدينة ارتفع الصياح والهتاف والتصفيق من الجمـاهير المتراصة على الجانبين . وفى تلك الليلة لم تغمض عين للمدينـة ، بل كانت أمواج الهتـافات تلاحق بعضها ببعضها منادية « ليسقط الكهنة ، ليسقط النبلاء! »

وعلى رأس أربعة عشر ألف رجل عاود نابليون رحلتـه إلى باريس ، ولم يعد بينه وبين العرش إلا جيش المرشال « ناى » المرابط فى طريقـه ، ناى الذى وعد الملك فى ثورة من ثوراته بأن يعود بالامبراطور « فى قفص من حديد » وكان إذ ذاك فى طريقه وهى يتحدث عن امبراطوره السابق بأنه وحش كاسر .

ولكن المرشال «ناى» لم يكن ليثق بولاء جنوده، بل انه ما كان ليثق بنفسه بعد أن رأى بعينه حماس الجماهير وسمع بأذنه ماجرى فى ليون ، وهـو فوق ذلك لايريد أن يوقد نار حرب أهلية . وعندما قدمت إليه نسخة من منشور الامبراطور طواها فى جيبه وهو يتمتم « انهم فى هـذه الأيام أعجز من أن يكتبوا بمثل هـذه البلاغة ، نعم هكذا يجب أن يخاطب الجنود » .

وهكذا كانت بلاغة نابليون سببا فى أن يفقد الملك أحد الأنصاره اشداء .

وعندما أرسل الامبراطور إلى المرشال يدعـوه ويرحب به لم يجد هذا فى نفسه القوة على رفض الدعوة ، لقد ذكر له نابليون بأسلوبه الساحر « انه يرحب به ترحيبا حاراً كما رحب به من قبل فى ذلك الصباح بعد دخوله موسكو » انه يذكره بموسكو ! ألم يمنحه نابليون لقب « أمير موسكو » ؟ أتراه الآن يثور على ماضيه وعلى ذكريات كلها فخار وازدهار ؟ وفى وسط صفوف جيشه أعلن المرشال ناى ولاءه للامبراطور . وما كاد يفعل حتى علا هتاف الرجال يشق أجواز السماء ، ومن ثم سار إلى لقاء الامبراطور فى « أوكس » .

ولم ينقض الأسبوع الثالث حتى كانت أنوار باريس تلمع من بعيد، وفى ليلة الاثنين وعند منتصف الليل وقف رتل من العربات أمام قصر التويلرى ، وعندما ظهر الملك واختفى فى إحدى هذه العربات تجمعتْ حلقة من المتطلعين تنظر إليه بعيون حزينة ، ثم إذا بالعربات تختفى فى الظلام .

وفى مساء الغد ، وفى نحو الساعة التاسعة وصل موكب الامبراطور الظافر إلى أبواب التويلرى نفسها تحيط بعربته كوكبة من الفرسان ، وعنـدما وقفت العربة وفتح بابها ، لم يترجل راكبها ، بل حمل على الأكتاف والأعناق فى وسط بحر من رجال السياسة والمرشالات والنساء ، يتقدمه رجل يحملق إليه وهو يصيح : « انه انت . انه انت »

وكان نابليون مغمض العينين ، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة كابتسامة أبى الهول ...!


سباق
الحديد

جرت حوادث هذه القصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ابان الحرب الأهلية التى استعرت نارها بين الولايات الشمالية التى يتزعمها «لينكولن» والجنوبية التى يقودها الجنرال «لى» وقد دعا إلى انفصال هذه الولايات الجنوبية من الاتحاد .

مضى عامان والحرب الأهليـة بين مد وجزر ، وكان القائدان الشماليان جرانت وبويل يزحفان جنوبا إلى «كورنث» حيث تجمعت جموع قوات الجنوب . وكان سقوط كورنث محققا فى نظر المهاجمين لذلك استقر الرأى على أن تتجه قواتهما شرقا صوب شاتانوجا وهى مركز استراتيجى هام على نهر تنسى ، إذ لو تمكنت بعض هذه القوات من الزحف مخترقة قلب بلاد العدو فان الطريق الشرقى سوف يفتح بابه فى وجه جيش جرانت الرئيسى .

وصلت طلائع قوات الشماليين على بعد ثلاثين ميلا من شاتانوجا ولم تبق إلا مسيرة ساعتين لاحتلال هذا المركز الحصين ، ولـكن ذلك لم يتحقق ، بعد أن فشلت الخطة التى وضعت لهذا الغرض ، فلم تسقط شاتانوجا إلا بعد عامين كاملين .

أما ماهى هذه الخطة ؟ . وكيف فشلت ؟ فموضوع هذه القصة .

* * *

لم تـكن شاتانوجا مدينة حصينة ، ولـكن القوات الجنوبية فى ولاية

جورجيا كانت كافية لصد أى هجوم يقوم به الشماليون ، إذ لايحتاج الأمر إلا لوقت قصير حتى تهرع آلاف من المحاربين إلى شاتانوجا على متن السكة الحديدية التى تمر بهـا ، فما لم تخرب هذه الشبكة الحديدية فإن الاستيلاء على شاتانوجا يكون أمراً مستحيلا .

كانت الخطة أن يرسل الشماليون جماعة لتخريب الخط الحديدى حتى يتسنى لهم حشد قواتهم وتوطيد مركزهم ، وسرعان ما تقدم الرجل الذى اضطلع بتنفيذ هذه الخطة الحربية ؛ كان رجلا لا يميزه شيء عن غيره من المتطوعين المدنيين الذين زخرت بأخبارهم الحرب الأهلية ، وكان يدعى اندروز .

وقع اختيار اندروز هــذا على أربعة وعشرين رجلا من خيرة رجال ثلاث فرق من ولاية اوهايو ، وكل ما عرفه هؤلاء الرجال انهم مكلفون بمهمة سرية ، فخلعوا عنهم أرديتهم العسكرية وتزيوا بزى أهـل الجنوب ولم يسمح لهم من السلاح إلاّ بحمل مسدساتهم .

وفى السابع عشر من ابريل اجتمعوا فى خارج مدينة « شلبيفيل » حيث أفضى إليهم اندروز بنوع المهمة التى اختيروا من أجلها .

أصدر اندروز أمره إلى هؤلاء الرجال بأن يتفرقوا جماعات كل جماعة قوامها ثلاثة أو أربعــــة رجال يولون وجههم شطر مرتفعات كمبرلن شرقا ، ومن ثم ينعطفون صوب الجنوب ، على أن يجتمعوا فى مساء اليوم

الثالث عند « ماريتا » فى ولاية جورجيا التى تبعد نحو مئتى ميل عن مكانهم الأول . وإذا حدث واعترض طريقهم أحد فعليهم أن يتظاهروا بأنهم من أهل « كنتا كى » فى طريقهم إلى معسكر الجنوبيين .

كان الجو عاصفا ماطرا فعوق ذلك المتآمرين عن الوصول فى الموعد المحدد ، لهـذا اعتقد اندروز بأن فرقة القائد « متشل » الزاحفة سوف تتأخر عن موعدها كذلك ، وهذا حدابه إلى أن يبعث برسالة إلى رجاله ينبئهم فيه بأن الموعـد المضروب قد تأجل يوما كاملا فأصبح السبت ١٢ أبريل بدلا من الجمعة . أما المتآمرون فقد ضل أحدهم طريقه ولم يصل أصلا إلى ماريتا ، ووصل اثنان منهم بعد الموعد المقرر ، وقبض على اثنين آخرين فاضطرا إلى الانضمام إلى صفوف الجنوبيين . حتى إذا كان صباح يوم السبت وصل العشرون الباقون إلى غرفة اندروز فى فندق ماريتا .

جاء هؤلاء الرجال كمسافرين عاديين على سكة حديد جورجيا ، وقد أبصروا بعيونهم كيف أنه من أشق الأمور أن ينفذوا الخطة التى رسمت لهم إذ أن السكة مكتظة بالقطـارات والجنود ، ولا سبيل لتحقيق بغيتهم إلا إذا اختلسوا قاطرة من محطة « بج شـانتى » التى استحالت إلى معسكر لقوات الجنوب . فعليهم أن يختطفوا قاطرة من معسكر يعج بمئات الجنود ويندفعوا بهـا إلى مسيرة مائة أو مئتين من الأميال بعد أن يحطموا كل

محاولة لاعتراضهم ، ولا شك فى أن هـذه مهمة تعجز عنهـا حفنة من الرجال .

كاد اليأس ان يتغلب عليهم حتى فكر بعضهم فى النـكوص ، ولـكن اندروز وقف ثابتا كالصخر لايتزحزح عن تحقيـق الهدف الذى خرج من أجله. فأصـدر أوامره وتعليماته الأخيرة ، وأنفذ رجاله إلى المحطـة الحديدية فابتاعوا تذاكر للسفر إلى مدن مختلفة تقع على الخط الحديدى إلى شاتانوجا .

سافر المتآمرون فى القطار الذاهب إلى شاتانوجا كغيرهم من المسافرين حتى إذا وصـلوا إلى « بج شانتى » بعد ثمانية أميال أبصروا معسكر الجنوبيين يتراءى من خلال غمام الصباح المبكر .

كان اليوم من أيام شهر أبريل الرطبة وقد أخذ الرذاذ المتساقط يستحيل مطراً منهمراً . وقف القطار عند « بج شانتى » للفطور ونزل عنه سائقه وملاحظه وأكثر ركابه لتناول الطعام فى المحطة وخلفوه فى غير حراسة أحد . عند ذلك سنحت للمتآمرين الفرصة .

كان بين هؤلاء العشرين من كان يعمل وقادا أو سائقاً . لهذا لم يمض وقت طويل حتى تمكنوا من فصل القاطرة وعربة الوقود وثلاث عربات أخرى من القطار . عند ذلك اعتلى اثنان من المتآمرين القاطرة كما تسرب البقية إلى العربات الملحقة ، ولم تـكن هذه مهمة سهلة ميسورة . إذ أن القطار

يقف على نشز من الأرض ، وعلى مسيرة أقدام من القاطرة نفسها كان حارس مدججا بالسلاح يشاهد مايجرى حوله، ولـكنه لم يتنبه لحقيقة الموقف إلا بعد فوات الأوان .

وعندما أعطى اندروز الإشارة بدأت العجلات فى الدوران وأخذت القاطرة فى المسير ، وقبل أن ترتفع الأصوات ويعلو الضجيج كان القطار قد اندفع بأقصى سرعته !

* * *

كانت المشكلة الـكبرى التى جابهت هؤلاء المغامرين هى تجنب القطارات القادمة من الشمال ؛ التى من بينها قطاران يعرف موعد وصولهما فبذلك أمكن تجنبهما فضلا عن قطار للبضاعة مجهول موعدقيامه ووصوله فأصبح مصدرا للخطر .

لهذا قرر اندروز أن يسير بقطاره المغتصب تبعا لجدول المواعيد لـكى يتجنب الاصطدام بقطار البضاعة المجهول، حتى إذاتم له ذلك انطلق بأقصى سرعته حتى يصل إلى قنطرة « شيكا موجا » فيشعل فيها النار ثم يمر بعـد ذلك خلال شاتانوجا إلى هنتسفيل حيث يكون القائد متشيل فى انتظاره .

كانت هذه الخطة محتملة النجاح لهذا قدر أندروز أن يصل إلى هدفه بعد ظهر اليوم نفسه ، وكاد يتم ذلك لولا مانجم عن تأخير الموعد المحدد لتنفيذ هذه الخطة .. كان يوم الجمعة ــ وهو اليوم الذى حدد أصلا لتنفيذ هذا التدبير ــ من أيام الصحو

وكانت القطارات تصل فى مواعيدها المقررة ، فلما كان يوم السبت ـ ولعل القدر قد أراد ذلك ـ أصاب الاضطراب شبكة السكة الحديدية ، فوصل كل قطار بعد موعده المقرر ، فضلا عن أن قطارين اضافيين تقرر تسييرهما فجأة ولم يكن اندروز على علم بهما ، ولو كان اندروز عارفا بذلك لما جازف بنفسه ورجاله ، مع ما عرف عنه من جرأة ولخسر التاريخ قصة مثيرة من قصص المغامرات .

كانت الجماعة تتمهل ما بين المحطات لتخرب القضبان الحديدية وتقطع الأسلاك البرقية ولتوسق ما تحتاج اليه من خشب لإشعال النار فى القناطر ، وكانوا فوق ذلك يقفون على كثب من المحطات الصغيرة ليأخذوا كفايتهم من الماء والوقود . وكان اندروز يخدع الموظفين بقوله أنه من رجال الجنرال «بوريجارد» وأنه يقود قطاراً للذخيرة إلى حيث يعسكر هذا القائد فى كورنث .

كان من سوء الحظ أن جماعة اندروز لم تكن تحمل أدوات لتخريب السكة الحديدية ، كما كان من الضرورى أن تحافظ على مواعيد القطارات المقررة ، لهذا انطلقوا بقطارهم المغتصب يمرون بالقرى والمدن وهم آمنون مطمئنون وقد امتلأت صدورهم بنشوة الظفر لما أصابهم من نجاح .

فلما وصلوا إلى محطة «أتواه» وجدوا قاطرة قديمة تملكها إحدى شركات الحديد وقد انبعث منها الدخان استعدادا للمسير ، فلم يتعرضوا لها إذ كانت أنظارهم منصرفة إلى قطار البضاعة المجهول ، حتى إذا وصلوا إلى «كنجزتون»

وهى على مسيرة ثلاثين ميلا من «بج شانتى» مروا بقطار ينتظر البريد على خط جانبى ، كما علموا أن قطار البضاعة المجهول الموعد على وشك الوصول . لهذا انحرفوا إلى خط ثانوى وانتظروا قدومه .

لم يمض طويل من الوقت حتى أقبل القطار ولكنه كان يحمل علماً أحمر منذرا بقدوم قطار آخر على أعقابه ، فما كان من اندروز إلا أن تقدم الى سائق القطار دون تهيب وسأله عن الدافع الى تعويق الخط الحديدى على هذا النحو ، مع أن واجبه يحتم عليه أن يسرع بقطار الذخيرة الى معسكر الجنرال بوريجارد . عند ذلك علم أندروز أن هانتسفيل قد سقطت فى يد متشل الذى اتجه بعد ذلك صوب شاتانوجا ، لهذا قرر الانفصاليون الانسحاب من هذه المدينة ؛ ولم يتردد اندروز فى أن يصدر أمرا الى السائق بالانحراف بقطاره عن الخط الرئيسى ، وقد أطاع هذا فوراً .

مرت فترة الانتظار وكأنها أجيال ، ولكن ما أن اقترب القطار الثانى حتى تبينوا أنه يحمل بدوره علما أحمر اللون فملأهم ذلك غيظا ؛ وجلية الأمر أن القطار الأول كان أثقل من أن تجره قاطرة واحدة مما دعا الى قسمه الى شطرين ، وهكذا أخذوا فى الانتظار مرة أخرى وهم فى لهفة بادية .

كان على اندروز وصحبه أن يتصنعوا الهدوء والرزينة ، وقد أحاطت بهم ثلاثة قطارات ، وطفق المسافرون ينظرون بعين الدهشة يستطلعون أمر هذا

القطار الخفى الذى استحال من قطار للبريد إلى قطار لحمل الذخيرة ، وهكذا طال انتظارهم ساعة وخمس دقائق ، وقد حذر أندروز رجاله القابعين فى العربات بأن يأخذوا حيطتهم وأن يكونوا على استعداد للقتال إذا اضطروا إلى ذلك ، أما هو فاختفى على مقربة من بناء المحطة خوفا من أن يبعث أحد المتشككين برقية يسأل فيها عن حقيقة هذا القطار الخفى ، ولكن ما أن أقبل القطار الثالث ومرت مؤخرته على الخط الجانبي حتى انطلق قطار المغامرين .

وفى هذه الأثناء كانت اشارات الإنذار قد أعطيت فى « بج شانتى » وفى وسط الضجيج الذى أحدثته المفاجأة قفز رجلان من عمال السكة الحديدية إلى ظهر عربة يدوية واندفعوا بها خلف المغتصبين ، فلما وصلوا « أتواه » اكتشفوا تلك القاطرة القديمة التى كانت كما رأينا واقفة ينبعث منها الدخان استعدادا للمسير ؛ فتسلقوا القاطرة القديمة وفى صحبتهم عدد من الجنود الذين كانوا إذ ذاك قريبا من المكان ، وانطلقوا بالقاطرة خلف أندروز ورجاله إذ استنتجوا أنهم لا بد ميممين شطر كنجستون .

وما أن وصل المطاردون إلى المدينة الأخيرة حتى كانت القاطرة المفقودة قد تركت المكان قبل وصولهم بأربع دقائق ؛ وهناك وجد المطاردون أمامهم ثلاثة قطارات تعوق طريقهم ، كما وجدوا من المستحيل أن تسابق هذه القاطرة القديمة قطار أندروز السريع ، لهذا هجروا

قاطرتهم الوئيدة واعتلوا ظهر إحدى القاطرات المنتظرة وألحقوا بها عربة واحدة ، وهكذا عاودوا السباق ، وليس بينهم وبين الذين يطاردونهم إلا دقائق معدودات .

وبعد ان قطع اندروز وجماعته أربعة أميال في شمال كنجستون توقفوا في منعطف ليقصوا الأسلاك البرقية وبعد أن أتموا ذلك أخذوا يعملون التخريب في القضبان؛ ثم إذا بهم يفاجأون بصفير القطار بعد أن أكملوا جانبا من مهمتهم على وجه من السرعة ، ومن ثم تابعوا سباقهم حتى وصلوا إلى المحطة التالية وكانت « ايدرزفيل » وهناك علموا أن قطاراً سريعا في الطريق . لقد كانت مجازفة جنونية منهم أن يتابعوا السير ، ولكن التأخير لم يكن أقل خطرا ، فانطلقوا بأقصى سرعتهم إلى المحطة التالية راجين أن يصلوا اليها قبل أن يقبل القطار السريع الذى كان متأخراً عن موعده .

قطع القطار المسافة بين ايدرزفيل والمحطة التالية ومقدارها تسعة أميال في أقل من تسع دقائق ، وما أن دخلوا المحطة حتى كان القطار السريع قد بدأ يتحرك ، ولكن سائقة ما أن سمع الصفير المتوالى حتى توقف وبذلك فتح الطريق الجانبى للقطار الداخل ، ولكنه في الوقت نفسه منعه من التقدم ! وهكذا وجد المغامرون قطارهم جنبا إلى جنب القطار السريع ، فكان ذلك

مثارا للدهشــة والتساؤل ، ولــكن اندروز لم يفقد اتزانه بل أعاد ذكر حكاية قطار الذخيرة وطلب باسم الجنرال بوريجارد أن يسمح له بالمرور فى التو، وبعد شيء من التلكؤ استجاب سائق القطار السريع لرغبة اندروز مفسح له فى الطريق .

أما قطار المطاردين فقد نجا فى الوقت المناسب من خطر القضبان المخربة فتركه العاملان وطفقا يعدوان على الأقدام حتى التقيا بالقطار القادم من ايدرزفيل ، وهو الذى مرت به جماعة اندروز من قبل ، فعملا على أن يشترك فى المطاردة فعادا به من جديد إلى ايدرزفيل وهناك استقلا القاطرة وحدها تتبعها عربة الوقود الموسوقة بالجنود . . وعندما وصلوا الى « كالوم » ظنوا أن فريستهم قد وقعت فى أيديهم ولـكنهم علموا أن اندروز تركها قبل وصولهم بدقيقة أو دقيقتين .

كان نجاح المغامرين يعتمد على امكانهم احداث ثغرة أخرى فى الخط الحديدى ، إذ لو تيسر ذلك لهم فان الطريق الى « شاتانوجا » تصبح مفتوحة فى وجوههم ؛ فقنطرة (أوستينولا) لا تبعد إلا مسيرة دقائق معدودة فإذا تم لهم إحراقها أصبح وصولهم الى معسكر «متشل» مؤكد .

كانت نقطة الضعف فى تدبيرهم أنهم لايحملون أدوات ما ، لهـذا كانت مهمتهم ثقيلة مضنية تحتاج الى وقت طويل ، فما كادوا يعملون على رفع القضبان حتى طرق أسماعهم صوت قطار مطارديهم ، ولو تيسرت لهم دقيقة أخرى

لتمكنوا من احداث فجوة فى الخط ولكن المطاردين كانوا على أعقابهم فلم يستطيعوا أكثر من ثنى القضبان ومن ثم عادوا الى قاطرتهم عجلين .

وهكذا بدأت مطاردة من أعجب المطاردات التى سجلها التاريخ ، فكان على أندروز أن يكسب شيئا من الوقت حتى يتهيأ له إشعال النار فى قنطرة أوستينولا لهذا عمل على فصل عربة من قاطرته لتعوق الطريق فى وجه المطاردين . . ثم خلى سبيل العربة الثانية ولكن قاطرة المطاردين مع ذلك واصلت السباق، لهذا لم يجد أندروز وقتا لإشعال النار ، فعبر القنطرة ومطاردوه على مرمى البندقية منه .

وقد تبين أن سرعة القاطرتين متساوية ، لهذا لم يأمل المطاردون فى القبض على غرمائهم، فأصبح همهم أن يمنعوا كل محاولة من جانبهم لتخريب الخط الحديدى أو لأخذ حاجتهم من الماء والوقود . كانت القاطرتان منطلقتين بأقصى سرعة ممكنة وقد تمكن أندروز بالفعل من الاحتفاظ بفرق المسافة ، ولكنه كان يفقد هذا الكسب بتوقفه من وقت لوقت ليقطع الأسلاك البرقية حتى لا يرسل إنذار إلى المحطات القادمة ؛ أما تخريب الخط الحديدى نفسه فلم يكن لديه وقت لتحقيقه .

حاول أندروز كل مايستطيع لتعويق مواصلات العدو ، وكان عليه أن يفعل المستحيل حتى يصل فى الوقت المناسب لتخريب قناطر (شيكاموجا) . ثم إنه أخلى سبيل العربة الثالثة وثبتها ببعض العوارض الخشبية لتعوق اندفاع المطاردين ، وقد نجح بالفعل مرتين فى جلب ما كان يحتاج إليه من ماء ووقود . وقد كاد ينجح

مرة فى رفع أحد القضبان حتى أصبح المطاردون على غير بعيد منه .

كان ذلك اليوم ماطرا نديا وكانت المياه تنهمر انهمارا على نقيض ما كان عليه الأمس من شمس مشرقة وريح عالية يجود فيها اشعال النار ، فكان من العسير على هؤلاء المغامرين تحقيق أمنيتهم ، لأن اشعال النار فى قنطرة فى مثل هذا اليوم النادى يحتاج إلى الكثير من الوقت والوقود .

وهكذا استمر هذا السباق العجيب ميلا بعد ميل ، وقد انطلقت القاطرتان تجوس خلال برية نائمة وقرى منسية ومحطات مهجورة ، وفوق جسور ممتدة خلف منحنيات خطيرة لم تألف مثل هذه السرعة ، وكانت آمال المغامرين تعود وتشرق إذا نظروا خلفهم فوجدوا مطارديهم قد اختفوا وراء أحد هذه الأركان ، حتى إذا استقام الخط الحديدى لمحوا الدخان المتصاعد ورنّ فى أذانهم صفير قطار مطارديهم .

فى مثل هذه المحن تمر الدقائق وكأنها ساعات وئيدة ؛ وإذا كانت شجاعة جماعة اندروز فائقة فان مطارديهم لم يكونوا أقل همة ؛ لقد كانت حياتهم ، معلقة . فى ميزان القدر فى كل لحظة من هذه اللحظات إذ لو اعترض طريق المطاردين قضيب منزوع لم يكشف السائق مكانه فى الوقت المناسب لقضى على القطار وراكبيه ولما نجوا إلا بأعجوبة ؛ وكم من مرة فقد الجنود أعصابهم وتسرب اليأس إلى نفوسهم لولا تصميم قائدهم .

رأى بعض جماعة « أندروز» أن يختبئوا فى منعطف الطريق حتى إذا أقبل قطار المطاردين هاجموهم بمسدساتهم وهم على مسافة قصيرة ، ولا ريب فى أن هذه الخطة كانت محتملة النجاح لولا أن أندروز كان مافتىء متعلقا بأمله فى تخريب القنطرة ، وكان خوفه من انتشار خبره بين اهل القرى التى يمر بها سبباجعله يعتمد اعتمادا كليا على السرعة . فلما وصل قريبا من مدينة « دلتون » توقف ثانية واقتلع الأسلاك وحطم ما أمكن تحطيمه من الخط الحديدى .

وعلى مرأى من هذا كله كانت فرقة من جيش الانفصاليين معسكرة فى هذا المكان ، ولكن أحداً من رجالها لم يرفع رأسه متسائلا ، ظنا منه أن ذلك كان جزءاً من الأعمال العسكرية نفسها . وقد حدث أن المطاردين أرسلوا انذاراً برقيا إلى « شاتانوجا » ولكن فقرة واحدة منه وصلت إليها وذلك قبل أن يعمل أندروز التقطيع فى الأسلاك . بيد أن ما كان يزعج أندروز هو قلة الوقود فكان عليه أن يتوقف فترة كافية من الوقت لأخذ حاجته من الخشب والماء ، وإلا كان عرضة لأن يتوقف أبدا .

وبعد أن ترك المغامرون « دلتون » وراءهم قاموا بمحاولة أخيرة لفك أحد القضبان ولكنهم عجزوا عن ذلك نظرا لخلو أيديهم من أدوات التدمير اللهم إلا من قطعة حديد ونظراً لاقتراب مطارديهم . وهكذا تابعوا سباقهم إلى نفق قريب فلم يتيسر لهم الوقت لتخريبه ؛ عند ذلك أحس أندروز بخطورة موقفه

إذ لم يبق فى يده سوى الورقة الأخيرة .

انطلق اندروز بأقصى سرعة استطاعتها القاطرة فتمكن بذلك من كسب شىء من الوقت ـ حتى إذا اقترب من إحدى القناطر الخشبية المقامة فى طريقه أشعل النار فى عربة الوقود فلما توسط القنطرة أخلى سبيلها وتركها حيث هى لكى تمتد النار منها إلى القنطرة نفسها فتقطع الطريق على المطاردين ، ولكن الحيلة لم تنجح لأن الخشب كان نديا والمطر لم ينقطع والمطاردين كانوا على أعقاب أعدائهم ، فتيسر لهم فى الوقت المناسب استخلاص العربة المحترقة ودفعها أمامهم بعيدا عن القنطرة .

لقد بدأ الأمل يتضاءل فى عيون أندروز ورفاقه ؛ فالقاطرة كاد ينضب معينها من الوقود وليس أمامها إلا بضع دقائق تتوقف بعدها فتصبح الطريق مفتوحة لا يعوقها عائق أمام المطاردين ؛ لهذا لم يكن بد من هجر القاطرة جماعة ومحاولة الهرب على الأقدام. وكان من حسن الرأى أن يترك أندروز ورفاقه القاطرة محاولين الاختفاء فى بعض المناطق الجبلية التى لا يمكن الوصول اليها إلا على ظهور الخيل والتى لا تربطها بغيرها شبكة الأسلاك البرقية . ولكن اندروز رأى خلاف ذلك فاقترح الهرب متفرقين ، وعلى هذا النحو انتهت هذه المطاردة العجيبة .

***

لقد كانت الخاتمة مأساة تثير الألم ، إذ كان الهاربون يجهلون طبيعة البلاد التي نزلوا فيها بعيدين عن أصدقائهم وأنصارهم ، لهذا كان مصيرهم الأسر . فألقى القبض على أكثرهم في اليوم الأول ، ولم يمض أسبوع حتى كانوا جميعا سوى اثنين منهم في قبضة قوات الانفصاليين .

ثم قدموا للمحاكمة العسكرية بتهمة التجسس اذ كانوا يرتدون الملابس المدنية ، فحكم على أندروز وسبعة من رفاقه بالاعدام ونفذ فيهم على الفور . وقبل أن يمتد هذا القصاص إلى بقيتهم كانت طلائع الاتحاديين تتقدم صوبهم فتمكن بعضهم من الهرب ، كما أنقذت حياة من بقى منهم في قبضة الانفصاليين عندما تبادل الفريقان أسرى الحرب من المعسكرين ، وهكذا أسدل الستار على هذا السباق الفذ .


أسير
الدّراويش

مضت اثنتا عشرة سنة وسلاطين[1] حاكم دارفور السابق أسيراً في قبضة الخليفة عبد الله التعايشى ، لهذا فكت أغلاله الثقيلة ومنح شيئا من الحرية ، بل ان الخليفة قربه اليه بعد أن أعلن اعتناق الإسلام ؛ وكان يقضى أكثر وقته فى الرحبة الكبرى المواجهة لدار الخليفة حيث يتلى القرآن ، وبالرغم مما كان عليه الخليفة من حذر وريبة كان يدعو سلاطين من حين لحين ليجالسه فى المسجد الكبير أو ليصبحه فى بعض الرحلات الداخلية .

لم يكن هذا الاستسلام ليزعزع يقين التعايشى من أن سلاطين موطد العزم على الفرار إذا أتيحت له الفرصة ، لهذا أمر أن تقيد حركاته ؛ فكان على سلاطين أن يحضر صلاة الفجر فى كل يوم حتى يراه بعينه . ومنذ ان وقع سلاطين فى الأسر سعى أهله جهدهم للوصول الى معرفة أخباره والعمل على تخليصه إذا تيسر ذلك ، ولكن الأعوام توالت دون أن تتحقق هذه الأمنية ، مع مبلغ ما بذل من مال وما قام به قنصل النمسا فى مصر من محاولات ؛ وقد تمكن القنصل

---

(١) رودلف سلاطين ضابط نمسوى من عائلة عريقة دخل فى خدمة الحكومة المصرية فى عام ١٨٧٨ وعين حاكما لمديرية دارفور وتوفر على دراسة شئون السودان حتى أصبح ثقة فيه وفى عام ١٨٨٤ أسرته جيوش المهدى حتى تمكن من الفرار فى عام ١٨٩٥ .

من أن يبعث إلى سلاطين بجانب من الأموال التى وضعتها أسرته تحت تصرفه ، ولكن سلاطين كان شديد الحذر فى صرفها حتى لاتتطرق الريبة اليه ، وحتى لايقع الرسل وهم من الأعراب فى قبضة عيون التعايشى ، وكان سلاطين فى حاجة إلى مؤاخاتهم لكى يستنجد بهم إذا ما لاحت له فرصة للهرب ، لهذا لم يشكُ من وصول هذه الأموال ناقصة إليه . .

* * *

فى أحد أيام شهر فبراير عام ١٨٩٢ وصل إلى أم درمان من مصر الشيخ «بكار أبو زيبة» وهو من عرب العبابدة ، وعند ما التقى به سلاطين فى ساحة المسجد الكبير أسرّ العبادى فى أذنه بأنه موفد لمساعدته ؛ فاتفقا على المقابلة فى الغد بعد صلاة المغرب . فلما كان اليوم التالى اختليا فى مكان منزو من المسجد وهناك تسلم سلاطين علبة من الصفيح ملأى بالبن وفى قاعها المزدوج ورقة من أحد رجال الجيش فى مصر يطالب فيها من سلاطين أن يولى بكار ثقته لأنه أوكل اليه أمر إنقاذه ، ولكن سلاطين عند ما ذهب للموعد المضروب لم يجد أحدا واتضح له فيما بعد أن الأعراب الذين أوكل اليهم الأمر أحسوا بخطورة المهمة فعادوا من حيث أتوا .

مضى عام بأسره وفى خلاله فشلت خطتان لهرب سلاطين ومع ذلك لم يدع اليأس يستولى على نفسه ، وإن كان من المجازفة أن يتعدد الأشخاص

الذين يحملون سر هذه المحاولات لأن عيون التعايشى تحيط بسلاطين فى كل مكان . . وفى أحد أيام شهر يناير ١٨٩٥ مر سلاطين على غير انتظار برجل يدعى محمد ، وهو ابن عم لصديق له هو « عبـد الرحمن واد هرون » وكان قد أولاه ثقته واخلاصه .

جاء محمد هذا من بربر بعد أن أعد العدة لفرار سـلاطين ، فاشترى الجمال والزاد وأحضر المرشدين لهذه الرحلة واختار الأسبوع الأخير من الشهر العربى لتنفيذها ؛ وفى صباح اليـوم الذى تقرر فيه الهرب ، ادعى سلاطين المرض ووقف على باب الخليفة كعادته وظهر بمظهر الضعيف العليل ، ثم طلب من رئيس حرس الخليفة الإذن له بالتغيب عن صلاة الفجر ، حتى لا يثير غيابه شكوك التعايشى فيبعث فى التو للسؤال عنه ، ولما لم يبتعد طويلا عن أم درمان .

وضع سلاطين خطة محبوكة الأطراف ؛ فقبل أن تغرب شمس ذلك اليوم جمع خدمه وطلب منهم أن يقسموا على الاحتفاظ بسر ماينوى ذكره لهم ، فروى لهم أن رسولا قدم من مصر يحمل اليه الشىء الكثير من الهدايا والنقود والساعات وغيرها من الطرف ، ولما كان هذا الرسول قد جاء سراً بغير علم الخليفة فقد رأى من الصواب أن يجعل أمره مجهولا ، لهذا بيت العـــزم على أن يزوره متخفيا فى صباح اليوم التالى . فإذا ما جاء أحد

رجال الحرس فى الصباح للسؤال عنه ، فعليهم أن يذكروا له أن سلاطين قضى ليلة طويلة يعانى فيها آلام المرض مما دعاه للذهاب ليلا فى صحبة خادمه احمد إلى رجل يشتغل بالتطبيب لايعرفون مكانه .

وإمعانا فى تضليل خدمه ، طلب سلاطين من خادمه « احمد » هذا أن ينتظره فى صباح الغد فى طرف المدينة الشمالى ، ومعه بغلته الخاصة ، على أن لايجعل القلق يستولى على نفسه إذا ماتأخر عن الوصول فى الموعد المضروب نظراً لخطورة تلك المقابلة ، وكان الهدف الذى يرمى اليه سلاطين هو تأجيل موعد إذاعة سر اختفائه بعض الوقت ؛ ولما كان من المستحيل أن يبقى أمر هربه مكتوما أمداً طويلا ، فقد اختلق حكاية البغلة لكى يجعل خادمه احمد بعيداً عن منزله ، حتى إذا ذاع أمر اختفائه من البيت راحوا يبحثون عن خادمه وبغلته ، وهذا بطبيعته يستغرق الشيء الكثير من الوقت .

صلى سلاطين العصر ثم عاد إلى منزله وهناك جمع خدمه مرة أخرى وشدد عليهم فى ضرورة الاحتفاظ بالسر ، ثم نفح كل واحد منهم شيئاً من المال ووعدهم بنصيبهم من الهدايا التى أحضرها ذلك الرسول الموهوم . ثم انه صلى صلاة العشاء فى المسجد الكبير حتى يراه الخليفة رأى العين قبل أن يأوى إلى فراشه ، فلما شمل السكون المسجد ارتدى عباءة صوفية ليتقى بها البرد وحمل فروة الصلاة وسار حذرا إلى طرف المدينة الشمالى .

لم يكد يسير طويلا حتى سمع همسا فظن أن أحد جواسيس التعايشى قد كشف أمره ولكن سرعان مابرز من الظلام صديقه محمد ، الذى قام بتدبير خطة الهرب وهو يقود حمارا امتطاه سلاطين وسار به حتى انتهى إلى بعض أطراف المدينة ، وكانت الريح شمالية باردة أجبرت الناس على الاستكنان فى بيوتهم ، فلم يصادف الرجلان أحدا فى الطريق ؛ وعند بيت خرب تمهلا قليلا حتى خرج عليهم أعرابى يقود جملا ، فأردف الأعرابى سلاطين خلفه وسارا حثيثا ساعة حتى انتهى بهما السرى إلى بقعة اختبأ تحت أشجارها عدد من الجمال وانضم اليهما دليل ثان ، وهكذا واصلت الجماعة السير الليل بأسره ، ولم يعق القافلة عائق سوى شدة الظلام وانتشار الأشواك البرية فى الطريق .

انبلج ضوء الفجر الأول وأخذ الأسير يتبين وجهى صاحبيه فعرف أنهما من سكان جبال جيليف ؛ ثم انبسط الوادى أمام الهاربين فساعد ذلك الجمال على العدو دون توقف للراحة مع ما فى ذلك من خطر على مواصلة الرحلة . . . حتى إذا انتصف النهار لاح لهم فى الأفق فارسان وقافلة من الجمال تسير فى نفس الاتجاه ، لهذا رأوا أن يغيروا طريقهم فانعطفوا شرقا ولكن لم تسر الجماعة طويلا حتى بدا لهم جندى راكب من جنود الخليفة يتجه نحوهم مسرعا .

رأى أحد الدليلين أن يخاطر بنفسه ويلتقى بالفارس فى منتصف الطريق ، بينما

يتابع سلاطين ورفيقه السير دون توقف ، فبذلك يعوقه عن مطاردة الأسير الهارب ، ولم يمض طويل حتى عاد « حامد » وهو أحد الدليلين إلى زميليه وذكر لهما أن الفارس صديق من أصدقائه ، وقد طلب منه باسم الصداقة أن يحتفظ بالسر ، وفى نظير ذلك منحه عشرين ريالا قبلها عن طيب خاطر .

ولم تنزل القافلة للراحة حتى جاوزوا جبال « هو بيجى » وهى تبعد مسيرة يوم عن شاطئ النيـل ، وكانت الشمس قد غربت ؛ وهكذا مضت إحدى وعشرون ساعة منذ أن تركوا أم درمان فى مساء الأمس ؛ ولا ريب فى أن هذا السفر المتواصل قد أنهك الجمال فلم يجدوا بدا من الراحة ساعة كاملة ، تناولوا فى خلالها شيئا من الخبز والبلح وبعض جرعات من الماء ؛ ولما جاء دور الجمال امتنعت عن أن تأكل شيئاً بسبب ما انتابها من شدة التعب .

كان أول ما جال بخاطر «حامد» هو أن أحد فقهاء الخليفة قد رقى الجمال الهاربة حتى يمنعها من متابعة السير ، لهذا فكر فى استخدام ترياق يفسد تلك المحاولة ، وكان ذلك بأن أوقد ناراً وألقى فيها بشىء من البخور وأخذ يطوف بها حول الجمـال وهو يتمتم بكلمات غير مسموعة ، ولـكن الترياق لم يفعل شيئا إذ أصرت الجمال على عدم الأكل ، فلم يكن بدٌّ من إعدادها للركوب خشية أن يضيع الوقت ؛ فلما انتصبت على سوقها امتنعت عن العدو وسارت بخطى وئيدة ، فكان ذلك أخف الضررين .

بدا إعياء الجمال الثلاثة واضحا عند الظهيرة حتى أصبح من المستحيل أن تواصل المسير ، لهذا التجأ الرجال إلى ظل شجرة باســـــقة واختبأوا بقية ذلك اليوم حتى أقبلت العشية ، فكانت الجمال قد أخذت قسطها من الراحة فواصلوا سيرهم حتى انفلق فجر الغد، فوصلوا إلى سفوح جبال «جيليف» وهو مكان منقطع لا يطرقه مسافر ، ولكن الدليلين كانا يعرفانه تمام المعرفة ويعرفان ممراته ومسالكه الجبلية الوعرة التى لا يمكن للجمال أن تسير فيها ، لهذا نزل الثلاثة عن جمالهم وساقوها خلفهم حتى وصلوا إلى نبع يتفجر بين هذه الصخور السوداء وهنالك تناولوا طعامهم من الخبز والتمر ؛ ثم قر قرارهم على أن يذهب أحد الدليلين إلى المكان الذى ينتظر فيه أصدقاء سلاطين وهو على مسافة تستغرق يومين كاملين ، حتى يعود إليهم بجمال قوية تتمكن من مواصلة السير دون توقف .

أما الدليل الثانى فرأى أن يذهب إلى شيخ القبيلة المجاورة وهو من أنسبائه ويعيش فى منزل على سفح ذلك التل ؛ إذ من الخير أن يعلم الشيخ عن وجود هذا الغريب حتى لا يصيبه مكروه ، وعلى ذلك انفرد سلاطين بنفسه فى هذا القفر المهجور وقضى الليل تساوره المخاوف والأوهام ، حتى إذا أقبل الفجر سمع وقع أقدام مقتربة فإذا بالقادم « حامد » الدليل ، الذى طمأنه بأن نسيبه الشيخ ابراهيم يرحب به ، كما وعده بإخفاء سره .

بعـد الظهر بقليل سمع سلاطين صوت دبيب خلفـه فأدار وجهه فاذا برجل يتسلق المنحدر متجها صوبه فأثار هذا المنظر هواجسه ولـكن حامد هون عليه الأمر إذ أن القادم لابد وأن يكون أحد رجال قبيلته ، لهذا ترك سلاطين وأسرع نحو قمة التل واختفى برهة ثم عاد برفقة ذلك الغريب وهو باسم الثغر وقدمه إلى سلاطين على أنه أحد أنسبائه الأقربين ويدعى « واد فيض » وذكر لهما الغريب فى صراحة أنه جاء أصلا للفتك بسلاطين لولا أن قريبه اكتشف أمره ؛ وذلك أنه كان يرعى جماله وأغنامه فساقها إلى الصخور القريبة ليبحث عن ماء للشرب وهناك شاهد آثار جمل فتعقبها ، ثم اكتشف آثار قدمى رجل أبيض فتحقق من أن رجلا غريبا دخل تلك الأرض واختبأ بين صخورها رغبة فى الاختفاء من عدو له ، فبيت العزم على أن يعود ليلا وينقض على هذا الغريب ويريحه من الدنيا ، وكاد يتم ذلك لولا أن قابل قريبه حامد .

اقترح « واد فيض » على الأسير الهـارب أن يلجأ إلى كهف بين الصخور ، بينما يعكف حامد على مراقبة الطريق من قمة أحد التلال ، وفى المساء عاد واد فيض يحمل قربة من جلد الغزال ملأى باللبن وشيئا من خبز الذرة فكان ذلك هدية قريبه إليه . وهكذا قضى الرجلان ثلاثة أيام فى هذا المكان ما بين المغارة التى يبيتان فيها ورأس التل حيث يقوم حامد بمراقبة الطريق .

حتى إذا كان يوم الخميس شاهد حامد رجلا مقبلا نحوهما فجذب سلاطين

بندقيته استعداداً للطوارىء ، ولـكنه ما كان فى حاجة إلى ذلك لأن القادم كان دليله الأول الذى عاد بجملين جديدين قويين . ولم تـكد شمس ذلك اليوم تميل للغروب حتى كانت الجمال الثلاثة بأحمالها تسير شرقا فى طريق وعرة ، ولم تتوقف حتى بدأ يتفتح نور الفجر ، وهكذا دخلت القافلة فى منطقة عامرة مجاورة لشاطىء النيل فبذلك تضاعف الخطر إذ من العسير أن يتحاشى المسافر الاتصال بالناس ؛ وهذا ماحدث عند الظهيرة إذ شاهد الهاربون قطيعاً من الأغنام يقوده بعض الرعاة فاضطروا إلى تغيير طريقهم بعيداً عن ذلك المرعى ، ومع ذلك فرأى أحد الدليلين من الحـكمة أن يسير إلى الرعاة منفرداً ليستقصى الأخبار فاطمأن إلى أن هرب سلاطين لم ينتشر بعد .

وقبل أن تغرب الشمس بدا له من بعيد نهر النيل وكأنه خيط فضى يلمع فى رقعة قاتمة اللون فلم يتمهلوا بل عاودوا المسير حتى انتهوا إلى مكان بين تلال حجرية يطل على النهر وهنالك أناخوا جمالهم وجلسوا يأكلون بشهية إذ بدت آمال سلاطين فى النجاة تتحقق . وهناك تركه صديقاه وانحدرا إلى حيث أولئك الأصدقاء الذين دبروا أمر هذه الرحلة .

وهكذا قضى سلاطين ليلته منفرداً فى تلك البرية وقد عادت إليه هواجسه ووساوسه فلم تغمض له عين حتى مطلع الفجر ، عند ذلك عاد « حامد » ليخبر سلاطين بأنه لم يجد من كان يبحث عنهم لهذا ترك زميله الآخر يستقصى عن

بعض معارفه لكى ييسروا لهم عبور النهر . ولما كان هذا المكان مما يرتاده الناس والرعاة كثيرا حفر سلاطين حفرة فى الرمل واختبأ فيها طول نهاره حتى لا تقع عليه عين أحد ، وأخذ فى محبسه هذا يستعرض حياة الأسر الطويلة التى قضاها فى صحبة الدراويش ويناجى آماله التى كادت أن تتحقق لولا مامنى به من فشل وهو فى المرحلة الأخيرة من مغامرته .

وبعد ظهر ذلك اليوم لمع الأمل من جديد فى نفس سلاطين عندما عاد حامد ليخبره بأن زميله قد وجد من يقوم بمساعدته فى عبور النيل إلى الضفة الأخرى حيث ينتظره هناك «أحمد واد عبد الله» وبهذا انتهت مهمة الدليلين حامد ورفيقه فعادا من حيث جاءا ، بعد أن قدم سلاطين لهما جزيل شكره وعظيم امتنانه كما قدم لهما جملا ليعودا به .

علم سلاطين من زميليه بأن التعايشى صدرت أوامره منذ ثلاثة أيام بمراقبة الطرق والبحث عنه لهذا كان عليه أن يمعن فى التخفى حتى لا يثير حوله الشكوك . سارت الجماعة نحواً من ساعتين حتى انتهوا إلى صفة النهر وهناك أناخوا الجملين فى رفق وهدوء حتى لا ترهف إليهم الأسماع وبعد قليل أقبل «أحمد وادعبدالله» وأسرع وضم سلاطين إلى صدره وعانقه طويلا ، وأمر رجاله بنفخ قربتين فارغتين ربطتا حول عنق الجملين وهكذا عبر الجمل النهر سباحة إلى ضفته الأخرى . أما سلاطين ومضيفه فركبا قاربا صغيرا عبر بهما الماء حتى إذا وصل إلى ضفته الأخرى ثقب

قاعه فغاص فى الماء حتى تضيع معالم هذه الرحلة .

قضى سلاطين فى هذا المكان يومه حتى إذا انتصف الليل قدم له أحمد واد عبد الله مرشدين جديدين من أقربائه يصحبانه إلى الشيخ « حامد قضاى » من زعماء القبائل الخاضعين للحكومة المصرية وهو الذى وكل إليه أمر مساعدته للوصول إلى أسوان . وعند شروق الشمس وجد الجماعة أنفسهم فى مكان يدعى «وادى الحمير» لكثرة ماتسكنه من الحمير البرية مع خلوه من النبات وكانت الرمال ممتدة فى كل ناحية ؛ فضى يومان كاملان دون أن تمر القافلة بشجرة تتفيأ ظلالها حتى وصلت إلى تلال «نورابى» ومن هناك انحدرت إلى واد ممرع ولكنه خال من الرعاة فأناخوا جمالهم للراحة والشرب كما ملئت القراب بالماء العذب من بئر حلزونية ينزل إليها بدرجات منحوتة فى الحجر ، ولكنهم لم ينتظروا طويلا عندها خشية الواردين عليها ، فضلا عن أن الدليلين الجديدين كانا شديدى التذمر والإهمال حتى فقد سلاطين صندوقه وحذاءه .

وفى صباح اليوم التالى وهو الخميس وصلت القافلة إلى أحراش أبى حمد وقد فضل سلاطين الاختباء عن الأنظار على الرغم من عداء أهلها للخليفة وأتباعه ؛ وعند العصر عاود الرجلان التذمر وأصرا على الرجوع خوفا من أن يشى أحد بهما الى التعايشى ، فلم ير سلاطين مندوحة من الموافقة بعد أن سلم أمره إلى رجل من قبيلة أمارابى يدعى (حامد جرهوش) وهو شيخ فى الخمسين من عمره وقد أبدى

استعداده لمرافقة سلاطين نظير جعل قدره مائة وعشرون ريالا . وعندما خيم الظلام أقبل حامد جرهوش كوعده ، وبذلك بدأ سلاطين مرحلة جديدة من مراحل هربه .

بعد يومين وصل الرجلان إلى بئر تدعى «شوف العين» وهى قليلة الماء وعلى مقربة منها جلس الأعرابى يصنع الخبز، فجمع شيئا من الحصى وأوقد فوقه النار ثم أخذ ينزع الجمر من الحجارة الملتهبة ويضع فوقها أقراصا من عجين الذرة ويقلبها بعصا صغيرة حتى تنضج. ثم واصلا بعد ذلك السير حتى انتهيا إلى منحدرات جبال «عتابى» التى تمتد ما بين البحر الأحمر والنيل والتى تتفرع منها أودية مغطاة بالغابات تسكنها قبيلة العبابدة . ومع أن سلاطين ودليله قد اجتازا الحدود التى يسيطر عليها التعايشى إلا أن حامد أصر على أن يسير بعيداً عن عيون الناس خوفا من أن ينقل هؤلاء أخباره إلى السودان فينتقم منه أتباع التعايشى .

ومع أن «حامد جرهوش» كان شيخا ضعيفا إلا أن عزيمته كانت كعزيمة الشباب وروحه الوثابة كروح الفتيان ، ولا شك فى أن السير المتواصل واضطراب أوقات الطعام وشدة البرد قد أثرت مجتمعة فى صحة هذا الشيخ حتى اضطر سلاطين إلى ان يقدم له عباءته إشفاقا عليه ، بل أعطاه جمله رحمة بهزاله ، وراح سلاطين يسير عارى القدمين فوق الأحجار أربعة أيام بعد أن فقد نعله فى رحلته الأخيرة

من أبى حمد ، وكانت رغبة سلاطين فى الوصول إلى أسوان جعلته مستعداً للتضحية مهما كان نوعها .

خيل لسلاطين أن الجمل بدوره يتآمر عليه فى اللحظة الأخيرة مع أن من البديهى أن السير المتواصل دون راحة كافية قدفت فى صلابته ، ومما زاد الطين بلة أن اصطدمت قدم الجمل الأمامية بحجر مدبب فإصيب بجرح أخذ فى الاتساع حتى أضحى خطراً على مواصلة الرحلة ؛ فاضطر سلاطين إلى أن يقطع جانبا من حزامه الصوفى ليلف به الجرح على طريقة أهل دارفور الذين كانوا يستعملون الجلد بدلا من الصوف فى مثل هذه الحالة ، وكان عليه أن يغير اللفافة مره كل يوم .

وفى صباح يوم السبت ١٦ مارس ١٨٩٥ وصل الأسير الشارد إلى المرتفعات التى تحيط بأسوان ، فما أن انحدر إلى سفوحها المقابلة حتى بدأ النيل العظيم يجرى صافيا بين المزارع النضيرة ، وبدت مدينة أسوان بأبنيتها وقبابها ومآذنها كالحمامة البيضاء جاثمة على ضفته ، ولم تكد تقع عين سلاطين على معالم المدنية الأولى بعد فك عقاله ، حتى غمرته موجة من الفرح والسرور ، وراح يدعو الله شاكراً منته لتحقيق أمل كان كبعض الأحلام .

وعندما وصل سلاطين إلى أسوان ذهب إلى معسكر الجيش المرابط فى المدينة فاحتفى به ضباطه احتفاء عظيما ، وقدمت إليه ملابس أوروبية فبدا فى زيه

الجديد بعد اثنتي عشرة سنة لا يلبس خلالها إلا (المرقعية) التي كان يرتديها الدراويش في ذلك الحين . وكان أول ما فعله سلاطين أن دفع مبلغ المائة والعشرين ريالا إلى دليله « حامد جرهوش » فضلا عن ما قدمه إليه من الهدايا والملابس والأسلحة ، فتقبلها الشيخ وعاد إلى قبيلته فرحا مسروراً .

وفي اليوم التالي كانت باخرة البريد التي تسافر ما بين أسوان وجرجا (حيث كان ينتهي الخط الحديدي) على أهبة الرحيل، فأقلت سلاطين على نغمات فرقة موسيقية عزفت النشيد النمسوي إكراما له مختلطا بهتاف المودعين. ولعل خبر انقاذ سلاطين قد انتشر كالبرق فترامى إلى مسامع أهله في أوربا ، لأنه عندما وصل الأقصر وجد برقية من شقيقاته في «فيينا» تهنيه بعودة الحرية . .

وفي جرجا أقله القطار إلى القاهرة ، فوصل في الصباح ؛ وكانت في انتظاره الجالية النمسوية وبعض ضباط الجيش ، ونزل ضيفاً على قنصل النمسا الذي كان له الفضل في تدبير فراره .

* * *

بعد أيام تشرف سلاطين بمقابلة سمو الخديو عباس الذي أنعم عليه برتبة الباشوية . وهكذا ارتقى سلاطين في مدى ستة عشر عاما درجات السلك العسكري المصري، حتى وصل إلى أرفع مراتبه، ولعل أسره وحكاية هربه كانتا أروع صورة في تاريخه .

وإذا كانت المصائب تتمخض عن خير فإن ما قاساه سلاطين في أسره وهربه قد جعل منه بطلا ، وخلد له مؤلفا أصبح من عمد كتب التاريخ والمغامرات ، ذلك هو كتاب « السيف والنار » .


عودة
الأسير

في مساء أحد أيام شهر اغسطس ١٩١٤ ، ولم يمض على إعلان الحرب ثلاثة أسابيع ، كنت أرابط فى بعض الخنادق عند مونز . ولم يكن فى صحبتى إلا عدد يسير من الجنود أكثرهم من الجرحى ، فلم يكد يخيم الظلام حتى أحاطت بنا قوات ألمانية كبيرة ، ألقت علينا القبض وساقتنا فى اليوم التالى أسرى حرب إلى ألمانيا*.

وصلنا «لوفان» فى مساء ٢٦ اغسطس، فوجدنا النار مشتعلة فى أكثر من نصف المدينة ، فقضينا الليلة فيها ؛ وفى الصباح عاودنا المسير شرقا حتى وصلنا إلى « سنلاجن » فى وستفاليا ، بعد رحلة دامت اثنين وسبعين ساعة . وهكذا انتقلنا من معسكر إلى معسكر حتى انتهى بنا المطاف إلى « بورج » فى جوار مدينة مجدبرج ، وكان ذلك فى منتصف شهر ديسمبر . و « بورج » هذه بلدة صغيرة تبعد ستماية كيلو متر عن الحدود السويسرية وأربعمائة من الحدود الهولندية ، أما الأسرى فكانوا خليطا من الروس والبلجيك والفرنسيين ، ولم يكن البريطانيون إلا أقلية ضئيلة بالنسبة إليهم .

* هذه قصة ضابطين بريطانيين وقعا فى الأسر الألمانى إبان الحرب العظمى الأولى ، وحاولا الهرب ، وهى منقولة عن مذكرات أحد الضابطين الكابتن كارترايت ، أما الآخر فهو الذى يرد ذكره فى القصة باسم الميجر هاريسون .

ولما حل العام الجديد بدأنا نؤمن بأن الحرب ليست حكاية شهرين أو ثلاثة وأنها قد تطول إلى أبعد من ذلك بكثير .

ومنذ هذا التاريخ أخذت فكرة الهرب تستولى على عقول البعض منا ، وما ان انتصف شهر فبراير حتى كنت قد درست مع أحد رفاقى خطة للفرار . وكنا نظن أن نجاح مثل هذه المحاولة ليس عسيرا ؛ فإذا أقبلت أيام الدفء نولى وجوهنا شطر الحدود الهولندية سيراً على الأقدام ، على أن نختفى عن الأنظار نهاراً ونعاود المسير ليلا ؛ ولم نفكر فى أن نجازف بالسفر بالقطار ، إذ كنا نجهل اللغة الألمانية .

كان أول ما فعلنا أن درسنا طريق الهرب ، فاشترينا نسخة قديمة من دليل « بديكر » لشمال ألمانيا من بائع للكتب كان يسمح له إذ ذاك بزيارة المعسكر ، فعرفنا من بعض خرائطه أن طريقنا ليس شاقاً ، وأن كثيراً من الأحراش والغابات تكتنفه . ومن هذا التاريخ أخذنا فى جمع زخيرتنا من البسكويت والشوكلاته والحساء المجففة ، وغير ذلك من الأطعمة المحفوظة التى بدأت ترسل إلينا من انجلترا عازمين على أن نحمل معنا عند الهرب ما يكفى شهراً لطعامنا ؛ وفضلا عن ذلك فقد رأينا أن نعتمد على ما نختلسه من الجذور والفاكهة فى الطريق ، كما وجدنا من الميسور أن نوقد ناراً للطهى دون أن يكتشف أمرنا .

كان زميلى فى هذه الرحلة السرية الميجر «هاريسون» من الفرقة الإيرلندية،

وقد اجتمع رأينا على الهرب سويا بطريق الصدفة، إذ كنت فى أحد الأيام أقلد « بطاقة » المعسكر ـ وهى التى تقدم من العمال والمتعهدين الذين يتصل عملهم بالمعسكر إلى الحارس عند الخروج ـ كنت أقلد هذه البطاقة دون أن أعزم بشأنها على أمر معين ، لأننى كنت واثقاً من أن أية محاولة للهرب يجب أن تكون من باب المعسكر الرئيسى . وكانت أول مشكلة اعترضت تنفيذ هذه الخطة هى استحاله الاختفاء فى أرض الأعداء خلال رحلة نقطع فيها مئات الأميال دون أن نقابل مخلوقاً أو نضطر لشراء طعام أو نحوه مع جهل بلغة هذه البلاد . ولكن الحقيقة أن كل محاولات الهرب التى نجحت فيما بعد اعتمدت على هذا الشرط .

كانت إحاطة هذه الخطة بالسرية الشاملة ضروريا لتنفيذها ، لهذا قررنا أن نحتفظ بهذا السر حتى نضطر إلى طلب المعونة أو المساعدة . ولا شك أننا كنا على حق لهذا التكتم ، إذ أن الحوادث أثبتت فيما بعد أن ما من طائفة من نزلاء المعسكر إلا وقد اندس بين أهلها جاسوس ينقل أخبارها إلى إدارة السجن .

* * *

يسور معسكر بورج حائط يبلغ ارتفاعه ثمانية أقدام تعلوه ستة صفوف من الأسلاك الشائكة ، ويحيط بهذا كله سياج من الأسلاك ارتفاعه نحو عشرة أقدام ، أى أن ما استعمل من الأسلاك فى تسويره بلغ أحداً وثلاثين ميلا . وكان يقف حراس عند كل زاوية حول البناء ، كما يقف حراس فى كل نقطة يقترب

البناء فيها من السياج الخارجي . وكانت الأسوار فى الليل تنعكس عليها الأنوار الكاشفة ، كما تضيء الطرقات عشرات المصابيح على مسافات متقاربة . وللمعسكر بابان أحدهما صغير مخصص للخروج ويتجمع حوله عادة كثير من الجنود ، والثانى باب واسع لخروج العربات ولا يستعمل إلا لهذا الغرض. أما الزائرون والجنود فيدخلون من الباب الصغير بعد تقديم بطاقة خاصة .

استقر الرأى على أن نتخفى فى زى ضابطين ألمانيين حتى إذا بدأ الظلام يرخى سدوله نتجه صوب الباب العام ونمرق منه تحت أعين الحراس ، الذين ولا شك لا يجرأون على سؤال ضابط عن جواز الخروج . ولتنفيذ هذه الخطة كان علينا أن نعثر على معطفين من معاطف الضباط الألمان فضلا عما قد نحتاج إليه من قبعات وأحذية طويلة وسيوف وشارات مما يجعل التمثيل كاملا . وفى التو أرسل زميلى إلى صانع ملابسه فى لندن (وكان هـذا مسموحا به) خطابا يخبره فيه بأنه نقل إلى فرقة « الجريناديز » ويطلب منه أن يرسل إليه معطفا من المعاطف المخصصة لهذه الفرقة لأنه يشبه فى زيه ولونه المعطف الألمانى المنشود . أما أنا فطلبت من صديق لى فى هذه الفرقة أن يبعث إلى لندن فى طلب معطف آخر باسمه .

وبينما كنا فى انتظار هذه المعاطف من انجلترا انكببنا على دراسة طريق الهرب بشيء من التفصيل . فكان علينا أن نتجة شمالا إلى الحدود الهولاندية ،

ولـكن أحداً من نزلاء المعسكر لم يكن ليعرف هذه المنطقة معرفة شخصية لنستنير بتجاربه . وكنا إذا أطلقت صفارات المعسكر للتجربة فى حالة فرار أحد المسجونين (وكان قائد المعسكر مغرما بها) نلاحظ أن المطاردين من راكبي الدراجات يتجهون غربا مما يدل على أن الطريق الرئيسى يتجه إلى هذه الناحية ، لهذا رأينا أن نتجه شمالا صوب بحر البلطيق .

وبعد أيام وصل معطف زميلى ، أما أنا فلم يواتينى الحظ ، إذ أن صديقى الذى أرسلت باسمه فى طلب المعطف كان فى هذه الأثناء قد نقل من هذا المعسكر ، فلما وصل المعطف أرسل إليه بعنوانه الجديد ، عند ذلك أخذت أتفاوض مع ضابط روسى ليبيعنى معطفه الذى قصه له خائط ألمانى فبدا إلى حد كبير شبيها بالمعاطف الألمانية ، وبعد مساومات طويلة دامت عدة أسابيع تمـكنت من استخلاص هذا المعطف منه بعد أن نقدته مبلغا كبيرا من المال ووعدته فى حالة إلقاء القبض على أن أقرر بأننى سرقت المعطف منه خلسة .

كان توفير هذه الملابس وملحقاتها ـ ليكون التخفى متقنا ـ يحتاج إلى بعض الوقت فضلا عن ضرورة التستر عن أعين المتطلعين والجواسيس ، لهذا اتخذنا من غرفة منعزلة لزميل لنا مصنعاً للتجارب ، ولـكن ما كدنا ننتهى من مهمتنا حتى فوجئنا ذات يوم بتفتيش الغرفة ، إذ اتهم صاحبها بالرشوة ؛ ولـكن الحقيقـــة أن بعض جواسيس المعسكر وهم من البلجيك وغيرهم من

اليهود البولنديين تنبهوا الى ما أثار شكوكهم حول مايجرى فى داخل الغرفة وإن كانوا يجهلون حقيقة الأمر ، بيد اننا نجحنا فى تضليل المفتشين وتمكنا من استخلاص المعطفين فألقينا بهما من النافذة الخلفية . وكان لون معطفى أزرق غامقا ، لهذا وضعته فى محلول رطل من مسحوق البوريك وطفقت أمسحه بفرشاة حتى أخذ لونه يضرب إلى البياض فأصبح أقرب شبها بالمعاطف الألمانية .

قررنا محاولة الفرار فى العاشر من شهر نوفمبر ، وفى هذا اليوم ارتدى كل واحد منا قدراً كافياً من الملابس الداخلية ووزعنا فيما بيننا زادنا من الشوكلاته والبسكويت ومكعبات اللحم المحفوظ واللبن المضغوط كما حملنا منوقدا صغيرا لإشعال النار بواسطة الكحول المتجمد ، فبدا الواحد منا ببطنه المتمدد وأكتافه العالية (بفعل هذه المهربات) أقرب شبها بالبروسيين . وقد طفقت منذ شهور أرعى شاربى وأفتله كما وضعت منظاراً ذا إطار مذهب كبير حول عينى ؛ أما رفيقى الذى كان أشقر الشعر فانه صبغ شاربه وحاجبيه بدهان غامق كما غسل وجهه بمحلول مركز من القهوة المغلية ؛ فكانت هذه المحاولات كافية لتغيير ملامحنا إذا ماخرجنا فى ضوء العشية الباهت .

فلما أمسى المساء ارتدينا الملابس الجديدة وكلفنا ضابطين بريطانيين بمراقبة طريق الخروج ، حتى إذا جاءت عربة المطبخ وفتح الباب الكبير انسللنا منه ؛ ذلك أن كثيرا من الضباط الألمان الغرباء عن هذا المكان يترددون على المعسكر

فى مهام سرية ويدخلون ويخرجون على هذا النحو حتى لا يثيرون الشكوك حولهم، فلما تحركت العربة كنا على أهبة الاستعداد للخروج ، بيد أننا ما كدنا نقف على عتبة الغرفة حتى ألفينا ضابطين ألمانيين يتحدثان طويلا عن شئون الطعام ، فاستحالت علينا المجازفة بالخروج ، وهكذا انتهت هذه المحاولة بالفشل .

***

انتظرنا أسبوعا قبل أن تتاح لنا فرصة مواتية لتحقيق خطة الهرب . وفى أثناء ذلك أضفنا تحسينات جديدة عليها فحطمنا خلسة بعض المصابيح الكهربائية التى تنير الطريق إلى باب الخروج ، كما اتفقنا مع بعض زملائنا من الضباط البريطانيين على أن يوقدوا ناراً فى جانب منعزل من المعسكر فى الدقيقة التى نتأهب فيها للهرب حتى إذا اشتعلت شُغل الحراس عنا بإطفائها ، فجمعت لهذا الغرض أكواما من الورق ومن المهملات وبضع زجاجات من سائل « الميثيل » القابل للاشتعال .

وفى يوم ١٨ نوفمبر واتتنا الفرصة ، فاتفقنا مع بعض الجنود البريطانيين الذين يجمعون المهملات فى عربة المطبخ على أن تنتهى مهمتهم فى منتصف الساعة السادسة تماما حتى إذا دقت الساعة تحركت العربة وأسرعنا خلفها . وقبل أن يحين الوقت المضروب رحنا نستكمل وسائل التخفى ، فالتهمنا قدراً كافياً من الطعام واحتسينا شيئاً من البراندى .

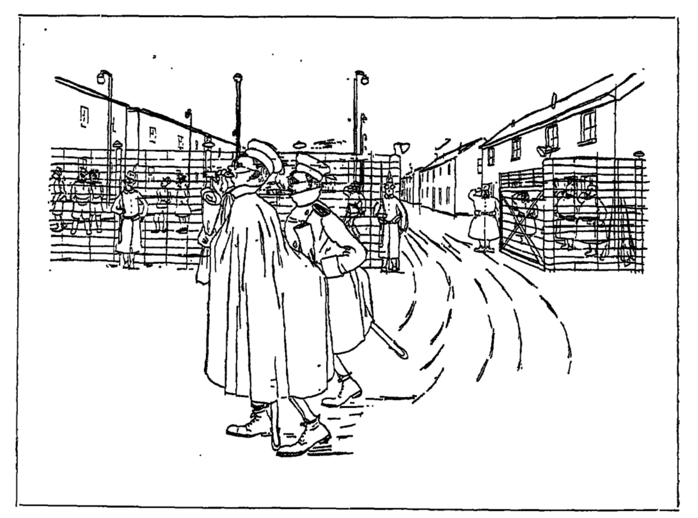
وعند ما دقت الساعة الخامسة والنصف تحركت العربة بالفعل ، فرقنا من الغرفة وسرنا صوب الباب المفتوح ، وقد صحبنا ضابط بريطانى تخفى فى زى ضابط روسى ، وأخذ يتحدث إلينا بلغة ألمانية ركيكة وبصوت مرتفع ، ومما زاد ثقتنا بأنفسنا أننا مررنا بجمع من الأسرى الفرنسيين والروس فلم يرتابوا فى أمرنا بل رفعوا أيديهم بالتحية كما جرت تعليمات المعسكر إذا مر الأسرى بضابط ألمانى، وفضلا عن ذلك فقد حمل كل واحد منا حزمة من الأوراق وراح يدخن سيجارا ضخما حتى بدا الشبه كبيرا والمنظر عاديا لا غرابة فيه .

وما إن فتح الباب حتى ختمنا المناقشة الوهمية مع الضابط الروسى وسرنا إلى جانب العربة ، وما إن وقعت عين الحارس علينا حتى انتصب فى مكانه ، كما ألقى رئيسه بقبضة المفاتيح التى كانت فى يده جانبا وبادرنا بالتحية العسكرية . وهكذا جازت الحيلة ! وإن لم تفتنا نظرة الدهشة التى علت وجه الحارس عند رؤيته ضابطين عظيمين يخرجان على هذا النحو من الباب الخلفى ، ولكنه لم يجرأ حتى على أن يوجه انتباهنا إلى مخالفة ذلك للتعليمات التى كان عليه تنفيذها !

وبعد قليل وجدنا أنفسنا فى خارج المعسكر فانحدرنا فى الطريق العام الذى ينتهى إلى المدينة ، وكان علينا أن نقطع بضع مئات من الأمتار حتى نجد مكانا مستورا نختبىء فيه ؛ وفى أثناء ذلك كان رفيقى يجر رجله اليسرى جرا ، إذ أن علبة صفيح من علب البسكويت التى كان يخفيها قد انفلتت وسقطت فى سرواله !

عند ما عزمت على الفرار رأيت أن أتردد على طبيب الأسنان فى بورج حتى أتمكن باسم العلاج من أن أدرس طبيعة المكان حول المعسكر ، فوقع اختيارى على بقعة منزوية تصلح للاختفاء ، وكان من حسن الحظ أن تعرفنا عليها ، فلم تمض خمس دقائق من خروجنا من المعسكر حتى التجأنا آمنين إلى ظلال خميلة من خمائل حديقة كبيرة . فما هى إلا دقائق حتى خلعنا ملابسنا العسكرية وجمعناها فى كيس أودعناه ما حملناه معنا من أنواع الطعام المحفوظ ، ومن ثم خرجنا من المخبأ نسير الهوينا على عادة العمال العائدين إلى بيوتهم رازحين تحت بعض الأحمال ؛ وقد تنبه رفيقى فى تلك اللحظة إلى ما انتابه من شرود الذهن حتى أنه دخن السيجار الغليظ ــ الذى وضعه فى فمه للتشبه بالألمان ــ عن آخره وهو الذى لم يعرف التدخين من قبل !

وعند ما ابتعدنا عن الطريق ألقينا نظرة على المعسكر من بعيد فألفيناه هادئا لا أثر فيه للحريق الذى أعده رفاقنا بعد خروجنا ، وليس هنالك ما يدل على أن أحداً قد اكتشف سر اختفاءنا ، ثم إننا انحرفنا شرقا وسرنا على ضفة إحدى القنوات لا لسبب سوى أن هذا الطريق لا يثير الشكوك حولنا إذا افتضح الأمر ، وبعد أن قطعنا بضعة أميال تمهلنا قليلا ، وفى خلال ذلك تخلصنا من بعض الملابس العسكرية التى جمعناها فى صرة وألقينا بها فى القناة بعد أن أثقلناها بالأحجار ، وهكذا خفت أقدامنا فأسرعنا الخطى ، فلم نقابل فى



وهكذا جازت الحيلة ...

طريقنا إلا رجلان أو ثلاثة تبادلنا معهما كلمة التحية وهى كل ما نستطيع أن نتلفظ به من اللغة الألمانية بشيء من الثقة ، وكانت الكلاب تنبح كلما اقتربنا من بعض القرى أو من بيوت الفلاحين المنعزلة .

* * *

ولما بدأ الفجر يتفتح أخذنا فى البحث عن ملجأ نختبيء فيه النهار بأسره ؛ وكان من حسن الحظ أن اكتشفنا مخزناريفيا منعزلا فارتقينا سقفه وحفرنا لجوة فى أكوام التبن التى تغطيه ودفنا أنفسنا فيها بعد أن أخذنا كفايتنا من الماء فى بعض العلب من الصفيح ، إذ أننا افتقدنا «زمزية» الماء أثناء رحلتنا الليلية ، وهى وسادة من المطاط المنفوخ استخدمناها لهذا الغرض .

وفى خلال ساعات النهار لم يزعجنا غريب أو متطفل ، لهذا قضينا اليوم بين النوم والطعام ، فشربنا مرتين كوبا من الكاكاو ومن الحساء المحفوظة ، وكان غذاؤنا يتكون من أربع قطع من البسكويت ونحو نصف رطل من الشوكلاته ونصف علبة من اللحم المحفوظ ، إذ أننا قدرنا لرحلتنا إلى شاطئ بحر البلطيق أربع عشرة ليلة .

كان هـذا اليوم كغيره من الأيام التى قضيناها فيما بعد ، فكنا إذا تفتح النهار نهرع إلى أحدى هـــــذه الزرائب ، وكانت جميعها عدا اثنتين منها فى أطراف القرى ، وكان بعضها متصلا ببيوت أصحابها ، وكان العمل فيها

يجرى تحتنا أو فوق رءوسنا ، وفى إحدى هذه المرات كنا فى خطر محقق عندما جاء فلاح يطلب شيئا من التبن الذى اختبأنا فى جوفه وكانت شوكته تعمل على مسافة أشبار منا . لهذا رأينا من الحيطة بعد هذه التجربة أن ندفن أنفسنا إلى عمق لا يقل عن مترين !

وكان من عادة رفيقى أن يقضى النهار بأسره نائما ، حتى أنه ما كان ليجد وقتا للطعام ، وكنت على النقيض من ذلك لا أستسلم إلى نوم عميق من شدة البرد والإعياء .

وفى الليلة السادسة أخذ الثلج والصقيع فى النزول، ولم ينقطع نزوله حتى نهاية الرحلة. وكان من عادتنا أن نبدأ السير فى العشية فى منتصف الساعة السادسة ولا نتوقف حتى يشقشق الفجر فى منتصف الساعة الخامسة من الصباح ، وفى أحد أيام الأحد تأخرنا حتى الساعة الخامسة على اعتبار أنه اليوم من أيام الراحة، فما كدنا نقترب من أحد هذه المخابىء حتى فاجأنا أحد الفلاحين فألقينا بأنفسنا على الأرض نحو ساعة إلى أن تركنا وانصرف دون أن يرانا .

وكان من عادتنا أن نستريح ساعة فى نحو منتصف الليل إذا اجتزنا مكانا أمينا فى الطريق ، ولم يكن البرد قارصاً بحيث يجعل الانتظار أمراً مستحيلا . وكانت الكلاب خطراً دائما كلما اقتربنا من قرية أو بعض بيوت الفلاحين.

وحدث ذات مرة أن غامر رفيق بالنزول إلى داخل الزريبة التى كان فيها مسلحا بعُلبة من صفيح ليختلس شيئا من اللبن فلم ينجح فى مهمته إذا اكتشف مع الأسف أن ما ظنه بقرة حلوبا كان ثوراً نطاحا !

وبعد الليلة الأولى اتجهنا شمالا صوب ميناء «روشتوك» مستعين ببوصلة كانت معنا ، وقد أجمعنا الرأى على أن نتحاشى المرور فى وسط القرى التى كانت متجاورة لا تبعد الواحدة منها عن الأخرى إلا بمسافة ميلين أو ثلاثة ، فكنا نتبع سكة حديدية ضيقة تدور حول أكثر هذه القرى الصغيرة ؛ فبذلك أضعنا كثيراً من الوقت .

كنا على يقين من أن المطاردين على أعقابنا، لهذا رأينا من الحيطة أن نتحاشى عبور القنطرة المقامة على نهير الهافل ، فلما اقتربنا من مجراه وجدنا أن القنطرة تسبح فى النور إذ سلطت عليها أضواء قوية انعكست عليها من مصنع مجاور، كما اكتشفنا أن حركة المرور عليها لا تنقطع ، لهذا انعطفنا يسرة لنبحث عن قارب نستقله إلى الضفة الأخرى فلم نجد طلبتنا ، وألفينا أنفسنا على أرض كثيرة المستنقعات تقطعها شبكة من القنوات ، لهذا صممنا على أن نعبر هذه القنطرة مهما كلفنا الأمر . وفى أثناء ذلك مررنا بحديقة أحد المنازل وقد جمع فى طرف منها كومة من الأعشاب الجافة فحزم كل واحد منا حزمة منها ورفعها على عاتقه وسرنا نرزح تحت هذا الحمل الثقيل حتى اجتزنا القنطرة، فلم يستلفت مرآنا أحد، بل إننا لم نلمح إلا أقدام السائرين الذين

حجبهم عنا هذا الحمل من الأعشاب ، وما كدنا نصل إلى الضفة الأخرى حتى ألقينا بالحملين فى مكان منعزل.

***

بعد أن عبرنا نهير الهافل أصبحنا أكثر جرأة ، فلم نحجم عن المروق إلى قلب المدن والقرى النائمة، ولكننا كنا نسير فى لهفة لا نلتفت حولنا حتى لا تتوجه إلينا الأنظار ، فكنا إذا أخطأنا الطريق لا نتمهل بل نواصل السير قدما ولو أدى ذلك إلى ضياع كثير من الوقت والجهد . وفى ذات مرة وقعت فى يدى عباءة صوفية تركها صاحبها فى الزريبة التى كنا نختفى فيها ، فلما خرج لبعض شأنه وكانت ساعة العشية لم أتردد فى اغتصابها !

وبينما كنا نستعد للخروج من المخبأ فى الليلة الأخيرة رأينا على حين غفلة على صفحة الثلج الأبيض الناصع شبحين يتقدمان نحو مكاننا وقد حجبا رأسيهما بلفافة كبيرة ، ولما اقتربا من حيث كنا ، نزعا اللفافة فبدت لنا فلاحتان فى مقتبل العمر ؛ وكان رفيقى فى تلك اللحظة ينزل من سلم الزريبة الخشبى فأحدث صوتا انزعجت له الفتاتان وكادتا تكتشفان المخبأ الذى كنا فيه لولا شدة الظلام ، فلما هدأ روعهما راحا يملآن الحشوة الكبيرة التى جعلاها غطاء للرأس بسنابل القمح ، ولا شك فى أنهما كانا يختلسانه اختلاسا ، وهذا سر اضطرابهما.

أخذنا نراقب الفتاتين وهما تبتعدان فى الاتجاه الذى كنا قد عزمنا على السير

فيه ، لهذا رأينا من الأصوب أن نسير فى اتجاه مضاد خوفا من أن ينتهى بنا الطريق الأول إلى قرية مأهولة ، وقد كلفنا هذا الحذر الشىء الكثير من الوقت والجهد إذ كان علينا أن نسير فى طريق دائرى . وإذا أضفنا إلى ذلك الجهل بجغرافية هذه المنطقة (إذ لم نكن نحمل خريطة لها) فإن اعتمادنا كان على المصادفة ، حتى أننا لم نرجع إلى الطريق العام الذى هجرناه إلا ونحن على مسيرة بضعة أميال من هدفنا النهائى .

وفى هذه المرحلة الأخيرة قطعنا ثلاثة وعشرين ميلا فوق أرض زراعية أو فى طرق مهجورة وتحت أقدامنا طبقة كثيفة من الثلوج ، وكان من نتيجة ذلك أن وصلنا إلى «روشتوك» وقدهدنا الإعياء والتعب وهذا خطأ جسيم ؛ إذ كان علينا أن نواجه أخطاراً غير منظورة ومفاجآت تحتاج إلى يقظة ونشاط ؛ وكان الثلج خلال هذه الرحلة لا ينقطع عن النزول حتى امتلأت به الحفر التى تكثر فى هذه المنطقة فكان خطراً على السائرين ، أما البرد فبلغ أشده ، إذ هبط الترمومتر إلى عشرين درجة تحت الصفر (كما عرفنا ذلك فيما بعد) وقد تجمدت مياه القنوات والبرك والحفر وكان علينا أن نطفىء الظمأ بمص قطع من الثلج ، ومن جرب هذا يعرف أن اللسان يكاد ينفلق من شدة الألم .

* * *

وصلنا إلى ضواحى روشتوك فى نحو منتصف الساعة الثانية من الصباح ،

وهناك عقدنا الصحبة مع جاويش ألمانى غبى ! ففى طريقنا إلى الميناء برز لنا جندى ألمانى من خلف الأشجار وصاح بنا أن نقف . . ولما حاولنا أن نتجاهل أوامره كرر النداء بصوت مدوٍ ، فلم نجد بداً من الوقوف إذ لم تعد لنا قدرة على العدو ثم أخذنا نتمايل و نتهاتر كما يفعل السكارى ، وكنا من قبل قد اتفقنا على تشخيص هذا الدور فأجدناه .

وقف الألمانى تحت مصباح الشارع وأمر واحدا منا بالتقدم إليه، فسرت أجر قدمى وأتمايل يمنة ويسرة ، وأخذ الجندى يوجه إلى سيلا من الأسئلة ، ومع أننى لم أكن أعرف اللغة الألمانية معرفة أكيدة إلا أننى ميزت أكثر هذه الأسئلة : من أنت ؟ وماذا تفعل هنا ؟ ومن أين قادم ؟ وإلى أين ولماذا ؟ وماجنسيتك ؟ وأين أوراقك ؟ الخ . .

وكان صوته يزداد ارتفاعا كلما ازداد غضباً لسكوتى ، وفى النهاية لم أر بداً من أن أقول شيئا ، وأخذت أتلوك كلاما هو خليط من اللغة الألمانية وغيرها من اللغات التى أعرفها ممتزجة بفواقٍ مصطنع ، وفى ثنايا هذه البلبلة حاولت أن يعرف الجندى بأننا بعض ملاحى سفينة دنماركية راسية فى الميناء ، وأننا نجهل اللغة الألمانية ، وأننا نسينا أوراق الجنسية فى السفينة ، وأننا كنا نقضى سهرة صاخبة مع بعض الأصدقاء عند قناة الميناء (التى مررنا بها فعلا وكانت أصوات السكارى تنبعث من وراء جدرانها) وأن الجعة الألمانية فاخرة ، وما نحن إلا من بعض الملاحين

المساكين ، وإنه ضابط بروسى شهم ، وإن الليلة باردة ، وختمت هـــذه التهتهة بمساء الخير .

ولا شك فى أننى نجحت فى إقناع الألمانى بهذه الشعوذة لأنه كان يردد ويصحح كلماتى حتى إذا انتهت أرسل أصابعه بين طيات ملابسى فلم يجد شيئاً ، ومن ثم دفعنى جانبا ونادى رفيقى الذى كان فى أثناء ذلك يمثل دور السكير العربيد، فلما اقترب من الحارس بصق ما كان يتلوكه فى فمه من قطع الثلج كما يفعل السكارى مما أثار غضب الجندى فراح يسمعنا أشنع النعوت والأوصاف ، ولكنه لم يفعل (وهذا مصدر العجب) أكثر من أن يأمرنا بالغروب عن وجهه ، ولعله ظن فى بادئ الأمر أننا بعض الأسارى الهاربين !

وفى أثناء هذا كله ما كان ليخطر لنا ببال أنه سيطلق سراحنا على هذا النحو، إذ كنا قد بيتنا العزم إذا حدث وحامت حولنا الشبهات على أن نلجأ إلى سلاح واحد هو العَدْو ! ولو أن صديقنا أجهد نفسه قليلا وتلمس ما كنا نحمله خلف ظهرينا لما خامره شك فى حقيقة أمرنا ؛ وقد علمنا فيما بعد أن هـذا الجندى كان يبحث عن روسيين هربا من معسكر «شترالزند» ، كما انه كان عالما بهرب ضابطين بريطانيين من « بورج » وإن مئتى مارك قد منحت لمن يقبض على أحد هذين الضابطين !

وجدنا من الخير بعد هذا الحادث أن نستمر فى تمثيل دور السكارى كلما أقبل

علينا أحد من الناس ؛ ثم إننا اتجهنا تواً صوب الميناء فوجدنا طريقا يحازى الشاطئ ويسير إلى نهايته . ولم تكن غايتنا فى هذه الليلة إلا أن تتفقد السفن الراسية على أن نعود إلى الميناء فى الليلة القادمة ونحاول عبور الماء فى أحد القوارب المهجورة ، اللهم إذا اكتشفنا إحدى البواخر العامة التى تستخدم فى نقل الركاب.



سرنا فى هذا الطريق حتى أتينا إلى نهايته وجدنا عدداً كبيراً من السفن الراسية وأكثرها من السفن المحايدة ، ولعل التعب قد أخذ منا مأخذه لأننا صممنا على أن نلجأ تواً إلى إحدى هذه السفن ولا ننتظر إلى الغد ، وفى أثناء ذلك كله لم نصادف إلا شرطيا واحدا ، ولكنه لم يلتفت إلينا .

لقد كانت الليلة مناسبة لما أقدمنا عليه ، إذ كانت ليلة مصقوعة شديدة الزمهرير عاصفة الريح وقد كست الثلوج كل شيء ، وفى مثل هذه الليلة لا

تجد حارسا إلا خلف النوافذ والأبواب الموصدة وقد أرسل الموقد ألسنة اللهيب . وكانت الميناء باهرة الضوء فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، فأخذنا نسير كالأطياف على طبقات الثلج لا نحدث صوتا .

ثم إننا اكتشفنا باخرة صغيرة يتصاعد من مدخنتها دخان طفيف ، وكانت تحمل اسما « اسكندنافيا » وقد نقش العلم الدنمركى على جانبها ؛ وبعد أن ثبت لنا أن أحدا لا يخفرها دلفنا فى حذر إلى السلم ؛ ولكننا ما كدنا نفعل ذلك حتى هجم علينا من الخلف كلب ألمانى ضخم من كلاب الشرطة وراح يثب حوالينا وينبح نباحا صارخا .

وفى تلك اللحظة فتح باب مركز الشرطة ووثب على عتبته جندى يحمل صفارة بين شفتيه ، عند ذلك أسرعنا نمثل دور السكارى ، ولكننا وجدنا أنفسنا أمام رجل من طراز آخر غير ذاك الجاويش الأبله ، وفضلا عن ذلك فقد كنا فى شبه زقاق مسدود ، ولم تكن أرجلنا قادرة على حملنا على الهرب ، لهذا كله لم نجد بدأ من التسليم ، وهكذا فشلت هذه المحاولة بعد أن بذلنا ما بذلنا من تدبير وجهد فى سبيلها ، وكان النجاح حليفنا حتى الخطوة الأخيرة .

قضينا تلك الليلة فى سجن الشرطة ، وهناك قابلنا ملاحا سويديا محكوما عليه بالإعدام بتهمة الجاسوسية ، فقام بدور الترجمان بيننا وبين رجال الأمن ، فعرفنا منه أنه قد تقررت عودتنا إلى معسكر « بورج » فى صباح الغد حيث تنتظرنا محاكمة عسكرية طويلة . . .


في سبيل الوطن
هرب من الوطن

قبيل أن تنتصف ليلة الأحد ٢٤ مارس سنة ١٩١٢ كان أحد ضباط الشرطة في طريقه إلى بيت من بيوت حامية الزيتون من ضواحي القاهرة .

كان هذا الضابط يحمل إخطاراً من النيابة العمومية يدعو فيه صاحب الدار للمثول أمامها في صباح الغد للتحقيق والاستجواب ؛ ولم يكن الضابط المصرى مقبلا على أداء واجبه الرسمي بنفس راضية ؛ ولكن هكذا مهمة رجال الأمن لاتسمح لصاحبها بتفكير أو عاطفة ، فهم كرجال الحرب ، الطاعة شعارهم رغبوا في ذلك أم كرهوا .

في ذلك السكون المخيم والظلام الناشر ظلاله فوق ضاحية الحلمية النائية في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وجد الضابط الشاب طريقه إلى البيت المنشود؛ هى دار يعرفها جد المعرفة بل يعرف صاحبها ، فصاحبها علم من أعلام البلاد أصبح اسمه في السنين الأخيرة رمزاً لآمال تجيش في صدور أبناء مصر ، إذا تردد على الآذان ذكر سامعوه الجهاد والجرأة والتضحية . .

طرق الضابط الباب ، وكأنما كان صاحب الدار على موعد مع زائره ، إذ كان في تلك الساعة في غرفته مكبا على أوراقه وكتبه يقرأ ويدون ويحرر ، وكان

أهل بيته قد استسلموا للنوم تاركين رب البيت منصرفاً إلى ما هو فيـه من عمل لا خاتمة له ولا نهاية ، إنها رسالة العمر لا تنقضى ، إلا إذا انصرم العمر نفسه . .

أقبل صاحب الدار على زائره مرحباً ولم يدع له فرصة للاعتذار ، فسرّى ذلك عنه بعد وجوم ، ومسح حمرة الخجل من خديه ؛ ثم قاده إلى غرفته وهناك تسلم إخطار النيابة ، وهو يحاول أن يتكلم همسا حذرا من أن يوقظ زوجته . .

كان صاحب هذه الدار ، الزعيم المجاهد محمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى . .

* * *

كان فريد بك قد ألقى منذ يومين من ذلك التاريخ خطابا سياسيا رائعا فى المؤتمر الوطنى الذى عقد برئاسته ، وفيه ندد بالاحتلال مطالبا بالجلاء السريع الناجز لبلاده ، كما ندد بصنائع الاحتلال مطالبا بالدستور ، مؤكداً أن الاضطهاد لا يثنى عزيمة المجاهدين الذين إذا ماسقط منهم واحد بفعل التشريد أو السجن قام من بعده جيل أشد فى الحق مراسا وأصلب فى محاربة الاحتلال عودا . .

ولم يكن عجيبا أن تسعى النيابة إلى زعيم المجاهدين تناقشـه الحساب كلما فتح فماً أراد عميد الإنجليز أن يُطبق إلا عن تمجيد جرائم الاحتلال ، كما يفعل المنـافقون ؛ إذ أن فريدا كان واثقا بأن ملاحقته بالسؤال والاستجواب وبالتهديد والوعيد سياسة قد رسمها «قصر الدبارة»[1] وأسلمها إلى صنائع الاحتلال

---

(١) كنية عن المندوب السامى البريطانى .

من المستوزرين المصريين لتنفيذها . وليس مما يشين كرامة أمة بأسرها مغلوبة على أمرها أن يجد الغاصب من بين أبنائها حفنة من الرجال قد أعمت المناصب بصيرتهم ، فأصبحوا حربا على الوطن ؛ إذ هذا ما يفعله الاحتلال فى كل زمان ومكان ؛ فكان فريد يحارب الاحتلال كذلك فى صنائعه من هؤلاء المستوزرين . .

* * *

ما أن انبلج الصباح حتى كان الزعيم المصرى الكبير فى طريقه إلى دار النيابة العمومية ، إذ أن أخبار هذا الاستجواب كانت قد انتشرت فى طول البلاد وعرضها مع تباشير الفجر ، فلم يكد يصل فريد إلى « باب الخلق » حتى سبقه جمع من صفوة رجال القانون ومداره المحاماة جاءوا سراعا ليقفوا سداً منيعا بين زعيم الوطنية وبين مخالب الاستعمار الممتدة إليه ؛ وكيف يعيش الاستعمار وهذا الصوت يدوى ويجلجل كلما جد الجد ؟ فتسرى نبراته بين أرجاء الوادى ؛ فيميد له كما تميد الجبال الرواسى ! وكيف يعيش الاستعمار وهذا المشعل المتأجج يبعث الحرارة والنور إلى القلوب فيملأها ثقة وإيمانا بحق هذا الوطن المضاع ! فإذا أراد الاستعمار أن يعشش ويفرخ على ضفاف النيل فليس إلا بعد أن يخفت هذا الصوت الداوى وبعد أن تخمد هذه الشعلة المتقدة ؛ ألا بئس من أمل يجيش فى صدورهم ، وخسئت يد تمتد إلى إمام الوطنية بسوء . .

* * *

اتهمت حكومة الاحتلال فريدا بالتحريض على كراهية الحكومة وبغضها وازدرائها . إن خطبته منذ ثلاثة أيام حافلة بما يعتبره القانون مثيراً للرأى العام ؛ إنه طالب فيها بجلاء جيوش الاحتلال البغيضة المعتدية ، إنه طالب بالدستور حتى تكون السلطة الحاكمة معبرة عن أمانى الشعب ورغباته ؛ إنه نبه الأذهان إلى أن لا سبيل لدفع العدوان إلا بالجهاد ومحاربة الاحتلال الأجنبي دون نظر لشخص ممثله وسياسته ، وتستوى فى ذلك سياسة الشدة واللين ؛ وإنه أهاب بوطنية المجاهدين من أن يفل عزائمهم الاضطهاد المتواصل ؛ إنه أعلن ألّا خلاص ولا مناص إلا بنشر التعليم .. أليس فى هذا كله تحدٍ صريح للاحتلال ورجاله !؟

لم تكن محاكمة فريد إلا ستاراً يخفى سياسة المعتمد البريطانى الذى كان يرمى إلى إقصاء فريد عن زعامة الحركة الوطنية ؛ لقد بيت العزم على التنكيل به بكل سلاح وبكل أسلوب ؛ لقد أغراه صنائعه بالمال والجاه ، فوجدوه أزهد الناس فى المناصب ، وأعف الناس عن تولية وزارة تحت حماية دولة أجنبية مغتصبة .

لقد كان دفاع الزعيم عن نفسه واضحا لا لبس فيه ، إنه يمثل الرأى العام وينوره ، فإذا انتقد تصرفات الحكومة فليس ذلك حقداً عليها ، بل هو واجب كل مصرى يعتز بكرامة وطنه ، وهو حق كل مواطن لا يهدف فى نقده إلا إلى الصالح العام . .

ولكن المقام لم يكن مقام تحقيق وعدالة بل هى رغبة مبيتة وسياسة فرضها الاحتلال فرضا على رجال الحكومة ، فعليهم أن يتلمسوا تنفيذها مستترين خلف القانون ؛ لهذا قررت النيابة العمومية تقديمه إلى محكمة الجنايات ، وحددت لذلك يوم الثلاثاء ٢٧ ابريل سنة ١٩١٢ أى بعد أيام معدودات من سؤال النيابة له ؛ ولم تكن هذه السرعة تقليداً شائعا فى نظام المحاكم بل كان الدافع إليها الرغبة الملحة فى التخلص من هذا المجاهد ، كأنما الحركة الوطنية تموت بإقصائه أو تضعف بالتنكيل به .

لم يكن فريد غريبا عن السجن ، بل إن الاضطهاد قد زاده صلابة وملأ نفسه حرارة وإيمانا بعدالة القضية التى وكله الشعب فى الدفاع عنها ؛ إنه لم يتنسم نسيم الحرية إلا منذ سبعة أشهر خلت ، لقد ثأر منه الاحتلال فقدمه إلى المحاكمة إذ ذاك قضت عليه بالسجن ، فاحتمل الأذى صابراً صبر الكرام الأبرار . .

* * *

تمت المأساة الأولى فى يوم ٤ يناير سنة ١٩١١ . وكان الزعيم الكبير حتى ذلك التاريخ فى أوربا يشن حربا لا هوادة فيها على الدولة المحتلة المغتصبة ، كان يحضر المؤتمرات ويرأس الاجتماعات وينظم جمعيات الطلبة ويرسل الاحتجاجات بهمة لا تعرف كللا ولا مللا ؛ بينما كان الزعيم المصرى فى جهادة هذا يُسمع صوت وادى النيل إلى الدول الأوربية علها تستجيب لنداء الحرية التى كثيرا

ما تمشدقت باسمها ؛ بينما كان الزعيم يضحى بماله وحياته فى سبيل مصر ، كانت النيابة العمومية تطلب تقديمه للمحاكمة لمقال وطنى نشره فيما كان ينشر من آيات الوطنية .

كان القضاء سلاحا فى يد رجال الاحتلال ، ولم يكن يقصد من تلفيق هـذه التهمة إلا الإرهاب والتهديد ؛ فلم تـكن هذه التهمة مما تُدين مفكرا ، إذ كانت الصحف تنشر فى كل يوم أمثال هـذه المقالات ، ولـكن فريدا كان المقصود بذاته، فعلى النيابة أن تتلمس من مواد القانون ما يتسع لجر هذ الزعيم إلى ساحة القضاء ، وعلى رأسه قاض انجليزى يعرف واجبه نحو وطنه ولا يقيم للعدالة وزنا !

لقد تيقن زعماء الحركة الوطنية من أن حكومة الاحتلال قد بيتت العزم على تأديب رئيسهم ، لهذا قدمت الوطنى الـكبير عبد العزيز جاويش إلى المحاكمة للتهمة نفسها وقضت عليـه بالسجن فعلا ؛ فـكان هذا الحكم صوت نذير لراعى الحركة الوطنية ، فمصيره إلى السجن إذا سولت له نفسه العودة إلى الوطن ، فعليه أن يفاضل بين أمرين أحلاهما مرّ ؛ إما النفى من الوطن أو الزج به فى السجن، وراح أذناب الاحتلال يشيعون بأن فريدا لن يعود إلى الوطن حرصا منه على سلامته . .

وما كادت محاكمة المجاهد عبد العزيز جاويش تنتهى إلى ما انتهت إليه ، حتى أرسلت كريمة الزعيم خطابا إلى أبيها تعلنه فيه بما يشيعه المغرضون من

الطعن فى شجاعته واستعداده للتضحية في سبيل وطنه ، إنها تقول فيه « ولنفرض أنهم يحكمون عليك بمثل ما حكموا به على الشيخ عبد العزيز جاويش ، فذلك أشرف من أن يقال بأنكم هربتم ، وما تحملتم الهوان فى سبيل وطنكم .. وأختم جوابى بالتوسل إليكم باسم الوطنية والحرية ، التى تضحون كل عزيز فى سبيل نصرتها أن تعودوا وتتحملوا آلام السجن .. »

وهل أروع وأذكى فى ميدان الوطنية من أن يدعو ابن أباه إلى التضحية بحريته حتى لا يفل ذلك من عزائم غيره من المجاهدين ! إن الزعيم السياسى كقائد الجيش إذا نكص على عقبيه أشاع الفوضى بين رجاله وانتهى به وبهم الأمر إلى الهزيمة الماحقة الساحقة .

لم يكد ينتهى فريد من أداء رسالته فى أوربا حتى قرر العودة تواً إلى مصر ليقدم نفسه للمحاكمة وهو عارف تمام المعرفة ما سوف تتمخض عنه ، فلما كان يوم ٤ يناير سنة ١٩١١ كان فريد ماثلا أمام النائب العمومى الذى لم ينتظر طويلا حتى قرر تقديم زعيمه الوطنى إلى محكمة الجنايات .

كانت محاكمة فريد مسرحية هزلية مثلها رجال الاحتلال وأذنابهم ، كانت محكمة مصرية على رأسها انجليزى استعمارى هو المستر « دلبروجلى » ، وكانت جريمة المتهم إنه كان يعمل على إثارة الشعور الوطنى ، وهذه تهمة تكفى لأن يقدم صاحبها إلى محكمة الجنايات . .

مثل الزعيم الوطنى أمام هذه المحكمة ، وأراد أن يثبت للقاضى الإنجليزى أن الدعوة إلى إثارة الشعور القومى ليست تهمة يحاكم عليها المصرى أمام محاكم بلاده ولو كانت دور القضاء لعبة فى يد المستعمر ، فامتنع من أن يسمح لأحد المحامين بالدفاع عنه ؛ إذ كيف لرجل نصب نفسه محاميا عن شعب معتدى عليه أن ينتدب من يدافع عن نفسه ؟

خلت المحكمة للمداولة ؛ وولم يكن هنالك ما تجوز حوله المداولة لأن التهمة ملفقة والغاية واضحة والنتيجة محتومة . . وما هى إلا بضع دقائق حتى عاد القاضى الإنجليزى إلى منصته ليعلن الحكم على الزعيم المصرى بالسجن ستة أشهر . .

وهكذا عاد الوطنى الكبير من أوربا لا ليلبس أكاليل الغار اعترافا بفضله وجهاده فى سبيل قضية الوطن ، بل عاد ليقف موقف الاتهام شأنه شأن غيره من الخارجين على القانون ؛ نعم لقد روعت البلاد لهذا الحكم الجائر ، ولكن حنق الشعب على أذناب الاحتلال كان حينئذ أشد وأعظم ، مهما ألبسوا فعلتهم لباس العدالة والقانون لأنه ثوب زائف مهلهل . .

وهكذا اقتيد فريد العظيم إلى سجن الاستئناف بباب الخلق ، فشهد هذا السجن للمرة الأولى قطبا من أقطاب الحركة الوطنية يزج به الاحتلال إلى ما وراء قضبانه ؛ وهكذا توج فريد بأكليل جديد من الغار حمله فخوراً به مزهواً بين جدران السجن ، فلم يشك يوماً ولم يتبرم . .

جاء صنائع الاحتلال إلى سجنه يساومونه فى أن يغير من خطته فى سبيل العفو عنه وإطلاق سراحه ، جاء إليه « كولس باشا » الإنجليزى مدير السجون المصرية ، فلم يجد من الزعيم المجاهد إلا إعراضا ورفضا ، فلا هو يرضى أن يتنحى عن أداء رسالته ولا هو يرضى حتى عن التخفيف من حدة لهجته ، فعاد الإنجليزى يعلن فشله فى مهمته ؛ ثم أرسلوا إليه مصريا كبيراً ليقوم بدور الوساطة ، فلم يسمع من الزعيم السجين إلا لوما على مسعاه ، فهو لا يطلب عفواً من أحد ولا يسمح لأهله ولا لأنصاره بأن يتقدموا بطلب العفو ، فأى جهاد سلم صاحبه من العناء وبذل التضحية ؟

وبين أركان هذا السجن عكف الزعيم على الدراسة ، فتعلم اللغة الألمانية لكى تكون له عونا فى جهاده فى أوربا ، كما عكف على الاطلاع فكان الكتاب رفيقه فى وحدته ، فمرت الشهور الستة دون ضجر أو ملل .

وعندما حل يوم الإفراج عنه استعدت البلاد لاستقبال زعيمها السجين ؛ خفت منذ الفجر الأول إلى ميدان « باب الخلق » ووقفت تنتظر على أبواب سجن الاستئناف حتى انتصف النهار ومالت الشمس للمغيب وأقبل الليل ، ومرت ساعاته، حتى أقفرت الشوارع من السائرين وأغلقت المقاهى والدكاكين أبوابها ظناً بأن الزعيم لن يخرج فى ليلته ؛ ولكن جمعا حافلا من الشباب لم تفت فى عضده قسوة الانتظار فلم يبرحوا مكانهم حتى بدأ فجر اليوم الجديد يشقشق

من الشرق ، فإذا بعربتين تنطلقان من باب السجن هذه إلى الشمال وهذه إلى الجنوب ، لا يدرى أحد من فيها ، وذلك إمعانا فى تضليل الجماهير المترقبة، ولكن سرعان ما عرفت العربة التى تقل فريد ..

انطلقت الجماهير راكضة خلف عربة الزعيم السجين ، وشهدت العاصمة فى ذلك الصباح الباكر منظرا من أعجب ما شهدته ، فبينما كانت المدينة العظيمة مستغرقة فى نومها كان عشرات من شبابها يسابق عربة تحمل عميد نهضتها القومية وقائد حركتها الوطنية وزعيم مجاهديها وأبر أبنائها بها . وكانت العربة كلما سارت شوطا ينضم إلى الجموع التى تحف بها عشرات من السائرين ، حتى إذا وصلت إلى باب الحديد كانت الجماهير قد تكاثرت حول عربته وبدت كالموجة الجارفة تحمل على متنها قارب النجاة ؛ حتى انتهى المطاف إلى دار الزعامة وهناك بلغت الجموع مبلغا عظيما .

* * *

كان ذلك منذ سبعة أشهر . .

وها هو ذا الزعيم الكبير فى طريقة إلى النيابة العمومية مرة أخرى، وهذه أوراق التحقيق تسود صحائفها بالزور والبهتان ، وها هم صنائع الاحتلال ينصبون شباكهم من جديد حول الزعيم ، وها هو ذا المحقق المصرى يأبى ضميره أن يسترسل فى تحقيق يعرف الدافع إليه والغاية منه والرغبة فيه ، فيطلب أن يتنحى

عن القيام به ، ومع ذلك يستمر التحقيق ويستمر التفتيش ويتكاثر عدد المتهمين من رجال الحركة الوطنية ..

لقد بدت سياسة الاحتلال سافرة لا تدع مجالا للشك فى نواياها ، لقد ساء رجال العهد أن يقف على رأس الحركة الوطنية زعيم لا يفت فى عضده سجن أو تشريد أو تنكيل ، فصممت على أن تعود به إلى السجن كلما خرج منه، فبذلك يصفو لها الجو ولو حينا من الزمن ، مع ما فى هـــذا الاضطهاد المتواصل من إذلال لزعيم الحركة الوطنية وإنذار للملتفين حوله من المجاهدين ، فبذلك تهن عزائمهم وتعصف ريح الاضطهاد بشملهم ..

وها هى ذى محكمة الجنايات تلتئم برئاسة القاضى الإنجليزى المستر « دلبروجلى » الذى أرسل فريدا إلى السجن منذ شهور معدودات ؛ وهى ذى النيابة العمومية التى تمثل سياسة الاستعمار تعدد التهم التى تفيض غلًّا وحقداً على الحركة الوطنية التى يمثلها الزعيم ...

لم يعد هنالك أمل فى عدالة ، وماذا تجدى براعة الدفاع إذا كانت نية الحكومة قد انصرفت إلى إرسال الزعيم الى السجن كلما خرج منه ، فهذه التهم وهذا الجدل حول تفسير الألفاظ ما هو إلا ستار زائف لإيهام الشعب بأن ساحة القضاء ما زالت حمى للعدالة .

لقد هال رجال الحركة الوطنية أن تنتهى حياة زعيمهم إلى هذا المصير العسير،

فأجمعوا الرأى على أن يهاجر فريد إلى خارج هذه البلاد حتى يقود سفينة الحركة الوطنية وهو حر طليق ، فضلا عن أن محاربة الاستعمار الإنجليزى ليس مجالها مصراً حيث الخصم يتربع على كرسى الحكم ، بل إن صوت وادى النيل لا بد له أن يرتفع فوق منابر أوربا حتى يرن فى أذان شعوب تلك البلاد وحكوماتها ، فلعل ذلك يوقظ فى نفوسها روحا كريمة تناصر الحق وتؤازر حركة التحرير المصرية ..

لقد اتفق الرأى على أن يهاجر فريد من مصر إلى هـذا العالم الفسيح قبل أن تصدر المحكمة حكمها الجائر المنتظر ..

وفى يوم الاثنين ٢٥ مارس ، وقبل يومين من الموعد المحدد لصدور الحكم استقر العزم على هجرة الزعيم سرا . .

* * *

فى منتصف الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سـنة ١٩١٢ وعلى رصيف محطة العاصمة ، اجتمع بعض صفوة رجال الحركة الوطنية والمحاماة فى مصر لتوديع الزعيم محمد فريد المسافر إلى الاسكندرية للمرافعة فى قضية مرفوعة أمام المحكمة المختلطة فى تلك المدينة .

وكان فى صحبة الزعيم الـكبير اسمعيل بك لبيب أحد رجال الحركة الوطنية ، فلما بدأ قطار الساعة السابعة يتحرك تنقل فريد ببصره بين مودعيه الذين تمنوا له

رحلة طيبة إلى أن يعود إليهم فى الغد ؛ ولـكن قلب فريد فى تلك اللحظة كان ميدانا للعواطف العاصفة ، لأنه يعلم أن الغد المرجو سوف يطول موعده وان هذه الوجوه التى تودعه وهى مستبشرة بقرب عودته تعيش على أمل قد لا يتحقق أبدا . .

لقد كان هذا الصراع الهائل ناشبا فى قلب فريد منذ الأمس حين عقد العزم على الهجرة من الوطن ، إذ لما عاد إلى بيته فى المساء كانت زوجته وأهله فى جهل مما صحت عليـه عزيمته ، بل إن زوجته ما كانت لتعرف من أمر تلك المحاكمة شيئا ، فلما قر قراره على الهجرة فى صباح الغد لم يجد محيصا من أن يفضى بهذا السر إلى شريكة حياته ، لأنها أقرب الناس إليه وأعرفهم بسريرته وأكثرهم تقديرا لرسالته الوطنية الـكبرى ، التى كان يضحى فى سبيلها كل يوم بقربان جديد . .

لقد كانت شريكة فريد كفريد نفسه إيمانا ، فلم تجزع ولم تغلب عواطفها على وطنيتها ، وهى تعرف أن الهجرة قد تطول وقد يمتد أجلها ، فيعيش أبناؤها كاليتامى بعيدا عن أبيهم ، بل إنها تعرف أن المحتل سوف يسدد سهام غضبه وانتقامه إلى صدرها وأبنائها بعد أن فات من أيديهم الصيد نفسه ، وإنها لتعرف أن فريدا سوف لا يصمت له لسان فى أوربا مدافعا ومنددا بالاحتلال ورجاله ، فيرد رجال الاحتلال على ذلك بالتنكيل بأهله وأبنائه . .

كان كل ما طلبه فريد من زوجتـه أن تحتفظ بهذا السر حتى يغادر أرض الوطن ، فأوصاها بأن تقضى عنهم صحف الصباح حتى لا يطلعون على

أخبار محاكمته لأنهم يعرفون أن المحاكمة معناها الطريق إلى السجن ؛ وهكذا برت هذه السيدة الكريمة بوعدها ، فلم تدع أبناءها يشعرون فى الصباح بأنهم يودعون أباهم وهو على أهبة سفر سوف يطول ويمتد إلى ما شاء الله .

* * *

وصل فريد إلى الاسكندرية وهو يحمل هذا السر الذى لا يشاطره معه إلا زميله فى الجهاد إسمعيل بك لبيب ؛ وكان هادىء النفس تشع فى وجهه ابتسامة الرضا بما قدر الله له . وهناك قصد الفندق الذى اعتاد التخلف إليه وتناول فيه طعام الغذاء حتى لا يثير حول قدومه إلى الاسكندرية الشكوك والريب ، وعيون رجال الاحتلال مفتوحة تتبعه حيثما سار . .

كانت السفينة الروسية « الملكة أولجا » تبحر بعد ظهر ذلك اليوم نفسه إلى اسطنبول ؛ فقرر السفر على هذه السفينة دون انتظار أو إمهال ؛ وكان التدبير أن يشترى لبيب بك تذكرة على هذه السفينة وأن يصحبه فريد على أنه أحد المودعين ، ثم يتخلف على ظهر السفينة حتى تخرج من الميناء ، وهكذا كان .

ركب فريد السفينة فى صحبة زميله مودعا دون تذكرة ، حتى لا يتنبه رجال الأمن إلى ما صحت عليه عزيمته ، وهناك احتجب فى غرفة لبيب بك حتى انتهت إجراءات الحجر الصحى وأطلقت الباخرة صفارتها إيذانا بالرحيل ،

وهكذا فعل الوطنى الكبير ما يفعله الشريد الطريد الهارب من وجه العدالة ، ورضى لنفسه أن يهجر الوطن والأهل خفية ، هـــذا الوطن الذى أصبح مأوى حثالات الشعوب ، فضاق بأبر أبنائه ، وامتنع عن خير ولدانه ..

فلما أن استقبلت السفينة عرض البحر ، خرج فريد من مخبأه إلى ظهرها وراح يصعّد النظر إلى شاطىء الاسكندرية التى بدت معالمها تتضاءل شيئا فشيئا كلما أوغلت السفينة فى الماء ؛ أى عواطف كانت تضطرم فى نفس الوطنى المجاهـــد وهو ينظر إلى وطنه يختفى وراء الأفق ؟ لقـد تركه هاربا متخفيا ؛ لقد ترك أرض آبائه فلم يودعه مودع ، وهو الحبيب إلى قلب كل مصرى ؛ ولم يهتف باسمه لسان وشخصه ملء القلب والفؤاد ، ولم تدمع لهجرته عين ورسمه زينة العيون والأبصار ؛ لقد كان كريما حتى فى محنته فلم يمن على أحـد بتضحية ، فخرج فى غفلة من العيون ، كما تنطلق النسمة الحبيسة إلى الفضاء الفسيح .

***

يا للمجاهد الشريد الذى نزح من وطنه ليطاول أكبر أمبراطورية عرفها التاريخ ينازلها بلا سلاح سوى إيمانه بحق أمته ، وبعزيمة لا تفلها الشدائد ولا توهنها النوازل ؛ لقد جعل من أوربا جميعها منبرا يرفع منه صوت مصر عاليا مدويا .

لقد كان الاحتلال يلاحقه أينما سار ونزل ؛ كان ينازله سافرا كما كان يحاربه من وراء ستار ؛ فلما وصل إلى بلاد اليونان امتنع فى اللحظة الأخيرة عن النزول إلى الأرض ، إذ علم أن حكومة تلك البلاد قد نوت أن تسلمه إلى أعدائه ، ومثلها فى ذلك مثل كثير من الحكومات الأوربية ، التى وإن كانت حرة ، إلا أنها تعيش على فتات الدول الاستعمارية الكبرى .

بل ان اسطنبول نفسها مركز الخلافة الإسلامية ما كانت حفية بالزعيم المصرى الكريم كما كان يؤمل ويرجو ؛ لأن أذناب الإنجليز كانوا يعملون فى كل مكان لحساب الاستعمار . فما كاد يستقر به المقام ، حتى بدأت المخابرات السرية بين حكومة الاستعمار فى مصر وبعض أذنابهم من الأتراك تحثهم على القبض على الزعيم المصرى وإعادته إلى محبسه . فلما بلغت الشائعات فريدا وأنصاره فى العاصمة التركية حزم رأيه على الهجرة من دار الخلافة ، والسفر إلى سويسرا ؛ وقد صح ظنه لأنه لم تنقض أيام معدودات على انطلاق فريد من اسطنبول ، حتى صدر الأمر بإلقاء القبض عليه وإعادته إلى مصر حيث حكم عليه بالسجن سنة مع الشغل .

* * *

لم تكن هذه الملاحقة بالتى تشغل بال الزعيم الشريد عن الرسالة الكبرى التى كرس حياته من أجلها ، فلم يعقد مؤتمر أو يلتئم شمل

عصبة دولية حتى كان فريد أحد المنضمين إلى لوائها أو الساعين إليها ما دامت تتيح له الفرصة للدعوة للقضية المصرية ؛ فلم يكد مؤتمر السلام العالمى ينعقد فى مدينة جنيف حتى أخذ للأمر أهبته فجمع وفداً من الوطنيين المصريين والطلبة الذين كانوا يدرسون فى أوربا ، وقاد حملة شعواء ضد الاستعمار البريطانى حتى كان له ما أراد ، فهزم دعاة الاستعمار من الإنجليز أنفسهم وأنصارهم من الأمريكيين ، حين قرر هذا المؤتمر العالمى مطالبة انجلترا بالجلاء الناجز عن وادى النيل ؛ نعم لقد كان ذلك انتصارا أدبيا لمصر على كل حال .

كانت حياة فريد فى منفاه حياة جهاد متواصل وحرب لا يخمد لها أوار ؛ كان ينازل خصومه فى كل جبهة ، وفى كل ميدان ، وبكل سلاح . وما كان ليقعده عن أداء رسالته تضحية من مال أو عافية ؛ فما أن انتهى من أعمال مؤتمر السلام فى سويسرا ، حتى نزح إلى السويد ، ومن ثم انطلق إلى بلجيكا ، ومن بلجيكا إلى هولاندا ليحضر مؤتمر لاهاى ، ومن هولندا إلى باريس لينظم صفوف جمعيات الطلبة المصريين فيها ، ومن باريس إلى جنيف . وإذا به ينزح إلى انجلترا نفسها عدوته اللدود لينازل خصمه على أرضه حين عقد فى لندن مؤتمر الأجناس المضطهدة، فى عاصمة الأمبراطورية التى أذلت واضطهدت جميع الأجناس والشعوب فى أوطانها .

كانت شهرة الزعيم المصرى العظيم قد تناقلتها الألسن والمحافل والصحف

فى أوربا جمعاء ، فما ان هبط العاصمة البريطانية حتى التف حوله جماعات الطلبة المصريين والشرقيين وغيرهم من المشتغلين بحركات التحرير ، وما ان افتتح المؤتمر حتى دعا فريداً رئيس المؤتمر إلى مجلس الصدارة فيه ، لأنه ـ كما قال عنه ـ أحد الرجال الذين يؤمنون بالتضحية فى سبيل مبادئهم ، وأحد الذين أوذوا وعذبوا فى سبيل بلادهم ! وما أصدق الثناء إذا كان من الخصم . . !

وهكذا كانت حياة الزعيم العظيم حياة لم يطعم فيها ساعة راحة أو إستكانة مع ملاحقة الاستعمار له بالتهديد والوعيد ، فإذا أبدى استكباراً راحوا يمنونه الأمانى ويعرضون عليه الوزارة ، وهو الشريد الطريد الذى ينتظره السجن إذا عاد إلى وطنه . .

* * *

قامت الحرب الكبري الأولى ، فلم تفته فرصتها ، بل عمد إلى تجنيد كل القوى المصرية من الشباب المتعلم فى أوربا ، ومن الوطنيين المهاجرين من مصر داعياً الى تأسيس الجمعيات فى شتى البلاد الأوربية لبثّ الدعاية للقضية المصرية ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها كانت الأذهان مهيأة والقلوب مفتوحة للانتصار لهذه القضية ؛ فأُنشئت الجمعيات المصرية فى لندن وباريس وجنيف وبروكسل ونيوشاتل وليون ولاهاى وبرلين وليبيج ومونبلييه واسطنبول .

وهكذا كانت هذه الجمعيات كدور السفارات تردد صدى المطالب المصرية فى كل مكان ، حتى إذا أعلنت الهدنة والتأم عقد مؤتمر الصلح فى باريس ، وسافر الوفد المصرى إلى أوربا كان لدعوته صدى فى النفوس لأن فريدا وفريدا وحده قد بذر البذر الصالح خلال تلك الأعوام التى قضاها منفيا عن أهله ووطنه .

***

وبينما كانت أعلام ثورة عام ١٩١٩ ترتفع فوق أرض الوطن ، تلك الأعلام التى نسجتها أصابع فريد وأدخرها إلى حين ، كان بطل الميدان نفسه فى صراع مع الداء والمرض ، فإن ذلك الجسم الذى كان كالطود قوة ومناعة بدأت تخترمه الأمراض وتهاجمه الأسقام ؛ لقد عاش فريد خلال هذه السنين الطويلة بعيداً عن الوطن وبعيداً عن الأهل والولد ، بعيداً عمن يعنى بأمره أو يدبر شئونه وهو فى خلال ذلك لم يرع ما لجسمه عليه من حق ؛ فكانت أيامه وكانت لياليه سلسلة من الجهاد المتواصل ، فكان ينفر إلى كل بلد وإلى كل ناد من السويد إلى اسطنبول كلما تهيأت الفرصة ليرفع راية الجهاد تحت تلك السماء المكفهرة العاصفة الماطرة بضبابها وثلوجها ، وهو ابن النيل الذى لم يألف إلا صفاء السماء والحرارة والدفء .

وهكذا ترك المجاهد نفسه فريسة للمرض الذى كان يلاحقه إلى حيثما

سار وحل ، حتى إذا أحس بأن الداء أصبحت له الغلبة استجاب لحكم أصدقائه ، وما كان أقلهم ، فقبل أن يسافر إلى برلين طلباً للشفاء والدواء ؛ ولكن المرض كان قد استحكم فلم يعد لمبضع الجراح مكان أو مجال .

* * *

وفى يوم ماطر عاصف ، وكان النصف من شهر نوفمبر عام ١٩١٩ أخذ المجاهد الكريم ينازل آخر معركة فى حياته المليئة بالمعارك ضد العدوان والاستبداد ، ولكن هـــذه كانت معركة الحياة والموت ، فما أحس بأن لا مرد لحكم الله وإن منيته قد حانت ، تلفت إلى من حوله وجميعهم غرباء عن الوطن مثله وقال : « إنى أنا وأولادى وكل عزيز لدى فداء لمصر ، فإذا مت فضعونى فى صندوق ، واحفظونى فى مكان أمين ، حتى تتاح الفرصة لنقل جثتى إلى وطنى العزيز ، الذى فارقته وكنت أود أن أراه ! »

وفى غد ذلك اليوم شهدت شوارع العاصمة الألمانية جنازة حزينة سارت تحت طوفان من المطر تحف بها جموع من شتى الشعوب الشرقية تشيّع بطلا من أبطال الحرية إلى مقبرة المسلمين ببرلين ، وهناك وضع تابوت الفقيد العظيم فى أمانة حارس كنيسة إلى جوار تلك المقبرة ، فكان فريد حتى بعد وفاته رمزاً للأخاء والتسامح الدينى . .

* * *

مرّ عام أو كاد وزعيم مصر الأكبر ، وداعية استقلال وادى النيل ، والمجاهد الذى علّم الناس أن الجهاد تضحية لا شقشقة لسان ولا شهوة حكم ، مر عام أو كاد وفريد العظيم رهين جارس الكنيسة الألمانية . .

ولكن وطنه لم يكن عاقا ناكرا للفضل ، فقد أهاجت هذه الخاتمة الحزينة رجلا فاضلا من أبناء الزقازيق[1] لا تجمعه بالفقيد الكريم إلا صلة الرحم فى الوطن ، فتطوّع لأن يكون رفيق زعيم المجاهدين فى عودته إلى مصر ، فسافر إلى برلين وأنفق من وقته وجهده وماله حتى تيسرت له الأسباب ، فعاد إلى مصر بخير الأبناء والأحباب . .

وفى فجر يوم الثلاثاء ٨ يونيه سنة ١٩٢٠ ، كانت الباخرة « حلوان » تقترب من شاطىء الإسكندرية ، وما أن تفتح الصباح حتى كان أهل الثغر فى طريقهم إلى الميناء لاستقبال ابن مصر البار ، الذى يعود من منفاه إلى الوطن حبيس صندوق من حديد ، هو رمز رسالته التى جاهد من أجلها ، ومات شهيدا فى سبيلها ، رسالة تحرير شعب من احتلال أقسى صلابة من الحديد . .

وهكذا عاد فريد رمز التضحية والجهاد إلى وطنه ، فبكته مصر بكاء الثاكلة الولهى ؛ ولكن عودته الحزينة ألهبت نفوس الشباب ، وأذكت

---

(١) هو المرحوم الحاج خليل عفيفى .

فى قلوبهم روح الجهاد والتضحية والثورة .

مصر تبكى عليك فى كل خِدرٍ وتصوغُ الرثاء فى كلّ نادِ
مُنتهى ما بهِ البــلادُ تُعزّى رجلٌ مات فى سبيلِ البــلادِ
أمهاتٌ لاتحمل الشكلَ إلا للنجيب الجرىء فى الآحادِ
« كفريدٍ » وأين ثانى فريد أىُّ ثانٍ لواحــد الآحاد؟*

* من قصيدة شوقى فى رثاء فريد .

